٥٠٠
دار م. النحاس
500
HARLEQUIN

www.elromancia.com
مرمورية

العشيقة الذهبية

انجيلا ويلس

العشيقة الذهبية

انجيلا ويلس

أي شيء أسوأ من الوقوع في حب زوجك بجنون، لتكتشفي، في ما بعد، أنه لا يختلف كثيراً عن أي رجل غريب؟ فقد علمت كاتيا، يوم زواجها، أن مشاعر نيكولو كاشياتور نحوها كانت كلها زائفة. ولما كانت قد تورطت معه في زواج من دون حب في مدينة البندقية الرائعة الجمال، فقد بدا أن وضعها بالنسبة إليه، هو وضع عشيقة أكثر منه زوجة. ولكن، هل حقاً هو قد تزوجها امتثالاً لمشيئة أسرته فقط؟ لقد صممت كاتيا على أن تكتشف الحقيقة لتنقذ كرامتها، على الأقل، إذا لم يمكنها إنقاذ قلبها.

www.elromancia.com

«هل أنت نادمة لذلك؟»

قال ذلك وقد أصبح أمامها بحركة مفاجئة، ليرفع ذقنها بأصابعه الفولاذية.

وأجابته هي: «كلا بالطبع. وكيف أندم لكوني أصبحت زوجتك؟»

«لا أدري يا كاترينا.» وبعث جواب نيكولو الهادىء موجة من التوتر في جسدها، بعدئذٍ لم يعد في استطاعتها احتمال ثاير اقتراب جسده، الطافح بالرجولة، منها.

وتابع هو قائلاً: «ولكنني أحذرك من مغبة ذلك، لأنني لن أدعك ترحلين أبداً. فأنا شديد التمسك بما أملك.»

أنجلا ويلس

اكتسبت «أنجلا ويلس» ثقافتها في أحد الأديرة في «أسكس» في انكلترا، لتترك في ما بعد، عالم الصخب والتسويق والإعلانات، لتتزوج وتنشىء أسرة في ضاحية من ضواحي لندن، ومن ثم، أتخذت الكتابة هواية لها، مستعينة لذلك، بالخبرة التي اكتسبتها من أسفارها المتعددة، وخاصة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. إنها تقول إن طموحاتها، إضافة إلى كتابة الروايات العاطفية، هي قضاء أوقات طويلة في استراليا، خاصة سيدني، والجزر الصحراوية الكبرى.

www.elromancia.com

الفصل الأول

لم يكن «نيكولو» يحبها.. واغرورقت عيناها بالدموع.

وتطلعت «كاتيا» من نافذة الطائرة البوينغ ٧٣٧ التي ترتفع فوق أوروبا مسرعة نحو البندقية حيث تبدأ شهر العسل. كان صفاء السماء الخالية من الغيوم، يتناقض مع ما يعتمل في أعماقها من صخب وهياج. وأخذت أصابعها تعبث بتوتر بفصوص الماس والياقوت في الخاتم الذي في إصبعها الثالث من يدها اليسرى.

شحن جسدها بالتوتر وهي تحس بحرارة وجوده بجانبها، فسمرت أنظارها على المناظر التي تتعاقب تحتها. ولم تجرؤ على النظر إليه فتفضحها دموعها. وتساءلت كيف كان بإمكانها أن تحبس آلامها كل هذه المدة الطويلة؟ هل يكون وداع جدها المخادع قد حشرها في مثل هذا الوضع؟ مما جعلها تجتاز شكليات السفر في المطار، حين لم يبدر منها أي استغراب والمذيع يعلن تأخر رحلتها الجوية بسبب مشكلات تنظيم الطيران فوق أوروبا. وأغمضت عينيها مدعية التعب، الذي كان في الواقع قسماً من السبب، وهي تريح ظهرها إلى مسند المتكأ العام في مطار «هيثرو.»

لم تكن متأكدة، في البداية، من حقيقة عواطفها نحو نيكولو. ولكنها كانت حقيقية. لم تكن الحياة الهادئة التي أمضتها في قريتها في «سافولك» مع جدها وعمتها

«بيكي» قد أعدتها لحياة اجتماعية تمنحها فرصة للتعرف إلى النخبة من الشبان. وأما الفتيان القليلون الذين تعرفت إليهم في سن المراهقة وبعدها، أثناء السنة الأولى من عملها ممرضة في قسم العلاج الطبيعي في «مستشفى لندن» الكبير، هذه المعرفة يبدو أنها لم تبعث في نفسها أية عاطفة حقيقية نحو واحد منهم. ولكن، منذ استقرارها في وظيفتها عند بلوغها سن الثانية والعشرين، وهي تشعر بالرضا والاستقرار في حياتها. ربما لو كانت لها خبرة كافية في الحب، لكان في مقدورها أن تتصرف مع «نيكولو كاشياتور» بشكل أفضل. ولكنها كانت قد عزمت على أن تعيش نوعاً من الحياة لا يسبب الكدر للانسانين اللذين رعياها واعتنيا بتنشئتها منذ طفولتها. ولم يكن هذا يعني أنها لم تتألم من الحرمان من الحرية الحميمة التي تتمتع بها كثيرات من أترابها، أو يبدو أنهن يفعلن ذلك. ولقد شاهدت ما يكفي من المآسي العاطفية لأن يجعل عندها نوعاً من الحذر والتساؤل عما إذا كانت هذه المتع المحدودة، تستحق كل ذلك الألم عند انتهائها.

لقد كان احجامها عن التجربة، قد أضعف المناعة في قلبها مما سهل معه وقوعها في أسر حب نيكولو منذ حوالي الشهرين.

غرزت أظافرها في راحتيها وهي تتذكر المرة الأولى التي تقابلا فيها. لقد كان جدها يستقبلها عند باب بيته الريفي الذي كان قد أحضرها إليه عقب موت والديها الفاجع في إيطاليا. وقفز قلبها وهي ترى ابتسامته بعد أن

www.elromancia.com

كان فريسة للكآبة وفتور العزم. وفي الحقيقة، إن ذلك كان نتيجة القلق على حالته الصحية ما استحثها لاستعجال عطلتها السنوية. وازدردت لعابها في محاولة لتمالك نفسها وهي تتذكر أحداث ذلك اليوم.

لم تكد تنتهي من تحية جدها وعمتها «بيكي» حتى فتح باب غرفة الجلوس المشمسة ليقف فيه رجل غريب. ويا له من رجل غريب. إنها لا تزال حتى الآن، تتذكر كيف فغرت فاها وهي ترى أمامها رجلاً يمثل جمال الرجولة بشكل لم تر له مثيلاً. كان فارع القامة رائع التكوين يرتدي بدلة خفيفة من «التويد» وقميصاً حريرياً تدلت فوقه ربطة للعنق عقدت برقة وأناقة. وبدا في كل جزء منه رجل الأعمال الناجح الذي عرفته في ما بعد.

قدّم الجد الواحد منهما إلى الآخر وهو يبتسم بسرور قائلاً: «نيكولو كاشياتور» حفيدتي كاترينا.

كان نيكولو قد خطا إلى الداخل مادّاً يده مصافحاً، وقد بعث سواد عينيه الاحمرار إلى وجنتيها. ومن دون إرادة منها جذبت انتباهها كثافة أهدابه السوداء بينما كانت يده تصافح يدها.

لقد تعاملت في مهنتها مع كل أنواع الرجال سناً ومركزاً، ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن يخلع هذا الزائر ثيابه لتعلم أنه نموذج مثالي لرجل في أوائل الثلاثينات من عمره، تكويناً وعضلاً.

شد بأصابعه الطويلة على راحتيها وهو يقول: «يسرّني جداً أن ألتقي بك أخيراً يا سنيورينا.»

كان في الحيوية التي تدفقت من كلماته، وفي انحناء فمه

الجميل وهو يرحب بها، إلى لمعان عينيه، كان في كل ذلك، ما جعل خفقات قلبها تتسارع.

قالت له: «لا أذكر أن جدي أتى على ذكرك مرة واحدة يا سنيور.» وعاد إليها برودها وهي تتحول بنظرة استهجان إلى وجه جدها أنطونيو لورنس.

قال نيكولو بلطف: «ربما هذه هي المرة الأولى التي نتقابل فيها وجهاً لوجه، ولكن أسرتينا متعارفتان منذ مدة طويلة. ولكن تأكدي من أن الحديث عن جمالك وفتنتك قد سبق اجتماعنا هذا. ولمعت عيناه وهو يرد لها التحدي.

لقد اجتذبتها المغناطيسية المنبعثة منه دافعة حواسها إلى الانطلاق بينما كان جدها يقودها إلى غرفة الجلوس بملامح هادئة مسترخية لا تشير إلى سنيه السابعة والثمانين، ولا إلى الفاجعة التي خطفت منه ولده الوحيد في انفجار قارب في احدى بحيرات إيطاليا منذ عشرين عاماً.

قال لها جدها: «إن نيكولو هو إبن صديق قديم من أصدقائي.»

دخلت عمتها في هذه الأثناء تحمل صينية عليها زجاجة شراب وأربع كؤوس بلورية. وتابع الجد قائلاً: «إنه هنا حالياً في عمل يقوم به، وقد أحب أن يزورني.»

تناول انطونيو لورنس الجد زجاجة الشراب ليفتحها. ومد نيكولو يده يتناول الكأس من جدها وهو يقول: «إن إسم شركتي في «ميلانو» هو من أشهر الأسماء في عالم هندسة السيارات. والغرض من زيارتي هو لإنشاء علاقات مع القمة من مهندسيكم الميكانيكيين، وفي نفس

www.elromancia.com

الوقت ما الذي يريده السائقون الانكليز في سيارة حديثه.»

راودتها فكرة خبيثة في أن تتحدى خيلاءه هذه بقولها: «ما يريده السائق الانكليزي هو يناقض تماماً ما تظنه أنت.»

جاءها الرد وهو يجيبها بأسف: «إن الاستخفاف بذكاء الزبون هو خطأ كبير.»

دون وعي منها، انفجر من بين شفتيها الرد الحاد قائلة: «أو بذكاء الفريسة؟»

لعله عقلها الباطن استمد هذا التعبير من معنى اسم «كاشياتور» بالانكليزية، وهو «الصياد» فيكون التعبير بالإسم هو الصياد بالفعل.. وربما كانت في أعمق أعماقها، تعترف بخطورته. لكنها الآن، والآن فقط تكتشف كم هو، فعلاً، خطر.

أوما هو برأسه الداكن الشعر موافقاً بقوله: «وهنا الكارثة.» ونظر إليها بإمعان وهو يرفع الكأس إلى شفتيه متابعاً: «نخب صداقتنا يا كاترينا.»

صداقة؟ وتساءلت عما إذا كان لكاشياتور أية صديقة منذ احتفل بعيد ميلاده الرابع عشر. ولكن، لم يكن الوقت مناسباً الآن لمتابعة الخصام، خاصة حين رفع الجد والعمة كأسيهما مبتسمين. وهكذا، حسب المعتاد، رفعت كأسها تقارع به كأسه قبل أن ترشف الشراب.

كان من المستحيل عليها أن تحدد بالدقة، اللحظة التي وقعت فيها بحب نيكولو. لا بد أنه كان هناك تغيرات في مشاعرها منذ اللحظة التي جاء ليحشر نفسه في حياتها. ولكن، مثل أزهار «الكروكس» التي تنبت كل ربيع تحت

شجرة التفاح في حديقة جدها في «ساديغهام»، تبقى مختفية عن أنظارها إلى حين اكتمال نضجها، في ظلمة مكانها المنعزل حيث غرست، إلى أن يأتي اليوم الذي تتألق فيه بكل مجدها الذهبي، رافضة الإنزواء.

إنها تذكر تماماً ذلك اليوم. فقد كان نيكولو قد أبدى رغبته في شراء حصان من وكيل بنك سلالات دم الخيول، الذي كان صديقاً وجاراً لهم، «ريتشارد كارفيل» بغرض وضعه تحت التمرين وإعداده للسباق في أوروبا.

عندما أعلن عن اختياره نهائياً، كان ذلك في بداية الاسبوع الثاني من إجازتها. كان الطقس رائعاً وكانت تباشير الربيع تطل مع بزوغ أوراق الأشجار وتفتح أزهار أشجار الكرز.

عادت إلى حظائر ريتشارد بعد شوط عدو هادىء على ظهر «تريجر» مهرة ريتشارد الكستنائية الخاصة، وهي تتألق بالسعادة والرضى بعد ذلك الجهد، وقد تفجرت كل خلية في جسدها بالفرح والحياة والصحة.

ما أن ترجلت عن ظهر المهرة، وسلمت زمامها إلى سائس ريتشارد في الحظيرة حتى سمعت صوت نيكولو يحييها ويبعث الرجفة في كيانها.

كان عليهما أن يقضيا وقتاً طويلاً معاً أثناء وجودهما في ساديغهام حيث أنه كان ضيف الشرف لجدها. وشيئاً فشيئاً، ابتدأت تستمتع بصحبته. وبمزيج من السحر اللاتيني والرجولة الطاغية، استطاع نيكولو أن يتغلب على طبيعتها الحذرة ويتغلغل في قلبها وعقلها.

قرأ هو استسلامها هذا عندما رأى نظراتها.. وهكذا

www.elromancia.com

أدركها الضياع حين جذبها إليه يعانقها. واسترخت عزيمتها ولم تستطع الخلاص من قبلته المحمومة يوقظ بها أحاسيسها الجائعة.

هكذا، بعد دقائق قليلة من اطلاقه لها من بين ذراعيه، عرفت أن حب نيكولو قد استقر في قلبها وكل كيانها.

سألها بلطف يغلف عجرفة الفاتح الطاغي: «متى تتزوجين مني؟» وكان عليها، حينذاك أن تنتبه إلى تألق الفوز في ظلمة عينيه السوداوين. ولكن ذلك لم يحدث. ولاحساسها بشبه إغماء مفاجيء، تعلقت بذارعه وهي تشعر بعواطفها تتمزق بين رغبتها الجامحة بنيكولو، وبين ولائها لجدها الذي تدين له بالكثير والذي حاجته إليها مختلفة ولكنها بالتأكيد أقوى من حاجة نيكولو لها.

همست من بين شفتيها الجافتين: «جدي. إنه لن يوافق أبداً.» وأخذت تتساءل، وهي تشعر بالصراع بين حبها وواجبها، كيف لها أن تجعل نيكولو يفهم مشاعر جدها نحو موطنه ومسقط رأسه؟ في الوقت الذي لا تفهمه هي نفسها؟

توقعت من نيكولو أن يغضب قائلاً إنها ناضجة بما فيه الكفاية لأن تقرر مستقبلها ونمط حياتها. وفي الوقت الذي كانت تبحث فيه عن الكلمات المناسبة لتقولها، أدهشها قوله: «ليس هناك أي إشكال.» وتخللت أصابعه شعرها الذهبي وهو يمسح وجنتها الدافئة بشفتيه ثم يستطرد قائلاً: «سأطلب يدك من جدك سائلاً إياه أن يباركنا، ولكن، إذا هو رفض، وكانت هذه هي مشيئتك أنت أيضاً، فإنني سأعود إلى إيطاليا من دونك.»

فعلاً، سافر في نهاية الاسبوع من دونها إلى إيطاليا ولكن رحيله لم يكن لأن انطونيو لورنس قد رفض طلبه، وإنما لأنه باركهما موافقاً، وكان على نيكولو أن يسافر لينظم أعماله قبل أن يعود إلى انكلترا ليتزوجا في شهر حزيران/ يونيو.

أحست بالمرارة. لقد ظنت ذلك الوقت انها تعرف كل شيء عن زوج المستقبل. لقد كان أخبرها أن أمه هي الزوجة الثانية لأبيه الذي يكبرها كثيراً في السن، وأن الزواج الأول الذي ترمل بعده أبوه، لم يثمر أولاداً، ولأن أباه كان في الخمسين من عمره عندما ولد هو، كان لمولد نيكولو رنة فرح وبهجة غمرتها العواطف والعطاء المالي من والديه بينما كان يكمل دراسته العليا. وأوضح السبب في تأخر زواجه إلى أوائل الثلاثينات من عمره، إنه أراد أن يرى في غرفته امرأة يعرف تماماً أنها هي زوجة المستقبل التي يتمنى. ولأن هذا ما كانت تتمنى أن تصدق فقد قبلت هذا التفسير منه، وليس لأنها ارتابت في عدم خبرته بالنسبة للنساء. ولم يكن نيكولو بالجاهل في فنون الحب، وقد سبق وعرفت هذا، وكذلك عليها أن تكتشف خبراته الأخرى. ثم ظنت أنها تفهم ذوقه في الموسيقى وبقية الفنون وكذلك في الأدب والطعام، وما الذي يضحكه وما الذي يستفزه ويثير سخطه. وأدركت أن وراء شخصيته الطاغية القوية يكمن قلب محتدم العواطف. ولكنها كانت مخطئة. لو أنها فقط كانت أدركت ما تدركه الآن، وهو أن ما بدا من إطاعة نيكولو لجدها واحترامه لرغباته، إنما هو مؤسس على إدراك أناني وهو أن

www.elromancia.com

الرجل العجوز لن يستطيع الإعتراض على زواجهما، وذلك رضوخاً لظروف خارجة عن إرادته.

لقد كان جدها هو الذي أصر على أن يتزوجا مدنياً في انكلترا قبل أن يسافرا إلى إيطاليا لإجراء الطقوس التقليدية الكاملة. وكانت سعيدة لهذا إذ كان في استطاعتها دعوة أصدقائها من الجيران والمستشفى إلى حفل زفافها. وقد وعدها نيكولو، في ما بعد، بأن يقيم أيضاً الشعائر الدينية بحضور أسرته وأصدقائه في البندقية. وبطبيعة الحال، فإن جدها وعمتها بيكي سيحضران تلك المناسبة.

إلى اللحظة التي وقفت فيها إلى جانبه في مكتب تسجيل الزواج، كانت على أتم اقتناع بأن عدم اعتراض جدها على هذا الزواج إنما كان صادراً عن موافقة تامة. ومنذ موت ولده الوحيد، وإحضاره لابنته لتعيش في كنفهما، هو وعمة كنته، منذ ذلك الحين وانطونيو لورنس لم يظهر نحو مسقط رأسه وشعبه سوى المرارة، وذلك ما أرجعته هي شخصياً إلى الصدمة العصبية التي انتابته إثر تلك الفاجعة، حتى أنه غيّر من اسم أسرته من «لورنزو» إلى اللفظ الانكليزي لذلك الإسم «لورنس» وهو ما أصبح يعرف به بعد ذلك. وقد غضب جداً عندما أخبرته أنها ستتخذ اللغة الإيطالية لغة ثانية وهو المطلوب منها لشهادتها المهنية.

عندما سألته مترددة عما إذا كانت مشاعره قد تغيرت بالنسبة إلى بلده وشعبه، أكد لها ذلك وهو يقول باسماً: «حيث إنني كبرت في السن، فإن رغبتي في رؤية بلادي تزداد، وابتدأت أدرك أن مشاعري وأحزاني ربما كانت

أكثر من اللازم، ولكنها بطبيعة الحال، ليست من الأهمية بحيث تقف في وجه سعادة حفيدتي الوحيدة. ونيكولو كاشياتور رجل غني وسيكون لك زوجاً صالحاً.»

غني؟ ومتى كان الغنى أساس السعادة؟ ولكنها في غمرة السعادة حينذاك، لم يساورها الشك قط في سبب موافقة جدها غير العادية تلك. لقد كانت متأكدة من أن نيكولو يبادلها نفس حبها له، وهل ثمة ما يدفع رجلاً إلى الزواج من فتاة غير الحب؟ ولقد ذهبت إلى حفلة زفافها بنظرة زائغة لتظهر لها الحقيقة الساطعة بعد ذلك بساعات.

حتى الآن، ليس في استطاعتها استعادة تذكر المشهد الذي استوقفها عندما اقتربت حفلة الاستقبال الصغيرة التي أقيمت في منزلها، وهو ما سمعته من كلام جدها مع نيكولو من نهايتها، وقد أعدا نفسيهما، هي ونيكولو، لكي يلحقا بالطائرة المسافرة إلى البندقية بعد ساعة. لقد نزلت السلم بخفة بعد إصلاح زينتها وشعرها، عندما سمعت صوت نيكولو آتياً من غرفة جدها.

كانت متجهة للإلتحاق به دون تفكير وقد امتص سماكة السجادة صوت خطواتها. وقبل أن تصل إلى الباب المفتوح أوقفتها الحاسة السادسة عن التقدم. كانت مشغوفة بجدها، وكانت لهذا تتقبل فكرة أنه من الطبيعي لرجل في سنه، قد نشأ على العقلية الإيطالية القديمة التي هي في كونهم، مع اعتبارهم للحياة الزوجية، يصرون على الاستمتاع بالصداقات التي تكون بين الرجال. حسناً، ما داما يتبادلان أحاديث الرجال، فما شأنها هي بذلك؟ والأحرى أن تتسبب لهما ببعض الارتباك في ما لو دخلت.. وكانت

على وشك أن تستدير عائدة من حيث أتت، عندما أوقفها صوت جدها وهو يقول بصوت خافت: «إنك تدرك انني لم أكن لأقبل بزواج المصلحة هذا إذا لم أكن متأكداً من أن هذا ما تريده كاتي.» ثم سمعت صوت نيكولو العميق يجيب: «أرح نفسك يا أنطونيو فانك لم تقم بعمل يشينك. إن كاترينا ستحصل على الثروة والمركز كزوجة لي وكل شيء تريدها أنت أن تستمتع به.»

قال الجد: «وستقسم لي أنك لن تخبرها أبداً بأن هذا الزواج قد حصل سداداً لدين يتعلق بالوفاء بين أسرتينا.» واهتز صوت جدها معبراً عن الأسف والشعور بالذنب معاً، ثم لتسمع بأذنين غير مصدقتين، نيكولو يقول: «إن هذا لا يهمني كثيراً كما تعلم.»

كان في جواب نيكولو رنة سخرية شعرت بها كطعنة في قلبها. لم تستطع السماع أكثر من ذلك، فاستدارت لتركض صاعدة إلى غرفتها. لقد أصابها ما سمعت في الصميم. «زواج مصلحة؟...»

«سداد دين عائلي يتعلق بالشرف؟...»

كان هذا بعيداً عن التصديق. كلا.. لقد تزوجها نيكولو لأنه أحبها.. أليس كذلك؟ ولكن الكلمات التي سمعتها قد حفرت في ذاكرتها.. ولقد فشلت في العثور على معانٍ أخرى لها. لقد جاء نيكولو إلى انكلترا لغرض واحد هو طلب يدها للزواج. لقد باعها جدها الغالي الذي تحبه في سبيل تحصيل شرفه. ولكن، لماذا أرادها نيكولو؟ وما الذي تستطيع أن تقدّمه إليه أكثر مما تقدمه إليه نساء بلده؟ ونظرت إلى صورتها في المرآة بذهن شارد دون

أن تلاحظ شحوب وجهها والكمد في عينيها الزرقاوين.

لكن، ما زال هنالك وقت للخلاص من هذا الرباط الزوجي الذي ربطت نفسها به دون حذر. إنها تستطيع أن تهرب بعيداً. ذلك أن رباطها الزوجي ما زال مدنياً ولم يعقد رسمياً بعد. فيمكن إذن، حل هذا الزواج الذي لم يكتمل حيث أنها ترفض الزواج من نيكولو كاشياتور.

قطع حبل أفكارها طرق على الباب لتدخل منه عمتها بيكي. ومنحتها عمتها التي تصغر جدها بإحدى عشرة سنة، ابتسامة حلوة وهي تقول: «هل أنت جاهزة يا حبيبتي؟ إن السائق ينتظر خارجاً ليأخذك إلى المطار.»

مهما كان تصرف جدها مؤلماً بالنسبة إليها، كيف لها أن تسبب الألم والكدر لهذين الإنسانين اللذين ربياها بالحب والحنان طيلة العشرين عاماً الماضية؟ إنها متأكدة من أنه ليس للعمة بيكي أي دور في زواجها هذا، فما ذنبها لكي تتألم إذا هي أثارت الفضيحة حولها؟ ثم ماذا عن انطونيو لورنس نفسه وكم يدين لأسرة كاشياتور؟ هل يدين لهم بمبلغ لا يستطيع إعادته؟

كان جدها في السابعة والثمانين وبالتالي مشرفاً على الانهيار، وارتعدت وهي تتذكر الضعف البالغ الذي أصابه حديثاً، ربما كان لهربه من موطنه إيطاليا، كل تلك السنين، ربما كان لذلك سبب أكثر من مجرد موت ولده، وقد أطبق عليه الماضي الآن. إذ أنه ما كان ليبيع مستقبلها لو لم تكن أمور هي في غاية البشاعة، تدفعه إلى ذلك.

أمسكت العمة بيكي بيدها الباردة تتحسسها وهي تسألها: «عزيزتي كاتيا.. هل أنت بخير؟ هل ثمة شيء يزعجك؟»

www.elromancia.com

حاولت كاتيا أن تتصنّع ابتسامة وهي تنهض واقفة وتقول: «ليس بي من شيء يا عمتي.»

لا مجال الآن للتراجع. ليس ثمة طريقة لأن تخبر جدها أو زوجها بما سمعت. ذلك أنها تخاف، إن هي فعلت، أن تنشر التعاسة بين كل هؤلاء الذين تحبهم.

«سيداتي سادتي، سنهبط في مطار ماركو بولو، البندقية خلال دقائق. ونحن نعتذر عن التأخير...»

استمر صوت المذيع في الطائرة ولكن كاتيا لم تعد تسمع، وهي ترى المدينة بأكملها تبدو منتشرة تحت الطائرة.

ثم غرقت بالمشاعر المتعددة التي تفاعلت في نفسها إلى جانب الغضب الذي كان مسيطراً عليها. ولم تكد تشعر بيدي نيكولو اللتين كانتا تثبتان حزام الأمان حولها بينما الطائرة تهبط.

كم حلمت بهذه اللحظة، وهي تتصور البهجة والإثارة اللتين ستحس بهما حين تطأ قدماها أرض إيطاليا لأول مرة وهي إلى جانب الرجل الذي تحب.

لكنها كانت أحلاماً. وكانت هي حجر شطرنج في لعبة لا تعرفها. ولكنها ليست من الغباء بحيث تترك نفسها لعبة في أيديهما في مناورة لم تفهمها.

لأول مرة منذ تعمدت استراق السمع عند الباب، حل الغضب في نفسها محل اليأس. ما هو الغرض من قطع نيكولو لكل ذلك الطريق من إيطاليا ليتزوج من امرأة لم يقابلها قط من قبل.؟ إنها ستكتشف ذلك بنفسها.

عزمت بغضب وإصرار على أن تعطي هذا الهدف

الأولوية، إذ أنها ما لم تعرف أولاً ما الذي يمسكه نيكولو ضد جدها، فإنها لن تستطيع أن تتدبّر أمر خلاصها من هذا الوضع الذي سارت إليه مغمضة العينين. وتساءلت عما كان سيحدث لو أنها لم تقع في حب نيكولو. هل كان جدها سيطلعها على الأمر متوسلاً إليها أن تقبل؟

كان السؤال فرضياً، فقد كان نيكولو رجلاً جذاباً وكذلك صفاته وشخصيته مما ساعده على التظاهر بالحب لها. وكان ما حدث هو النتيجة لذلك كله. ولأول مرة في حياتها تشعر بالندم لعدم اختلاطها بالرجال مما كان حتماً سيعطيها المناعة الكافية فلا تسقط في حب أول رجل جذاب المظهر يقابلها.

تصلّبت في قرارها وهي تفكر في أن نيكولو قد يظن أنه كسب اللعبة. كان واضحاً أنها يجب أن تخطو بحذر. ولكن كبرياءها كانت تدفعها إلى مهاجمة شعوره بالنصر. فلنفترض أنه يجب أن يكتشف أنه بدلاً من أن يوقع في شراكه فريسة رقيقة سهلة القياد، قد أوقع فريسة شرسة الخلق؟ ربما عند ذاك سيندم على عمله ويطلق سراحها. كان ذلك أملاً ضعيفاً، ولكنها يجب أن تتعلق به حيث ان ذلك هو الطريق الوحيد للخلاص من حياة زوجية خالية من الحب.

أخيراً، يجب على نيكولو كاشياتور أن يدرك أن ثمة شيئاً غير البراءة والدماثة في عروسه أكثر مما كان يتصور بكثير.

www.elromancia.com

الفصل الثاني

في سرعة مدهشة، كانا قد اجتازا الجمارك الإيطالية وأصبحا في الساحة الخارجية للمطار، حيث تجاهل نيكولو العبارة التي تمخر فارغة في مياه القناة الهادئة حيث قصدها الركاب الآخرون.

قاد نيكولو كاتيا إلى حيث كان مركب خاص يرسو في انتظارهما.

«أخيراً، أقبل السنيور.» وتقدم منهما رجل أسمر اللون أخذ بيد نيكولو مصافحاً وهو يقول بحرارة: «تهاني لك وللسنيورة.» وانتقلت يده من مصافحة نيكولو إلى معانقة كاتيا.

ناوله نيكولو الحقائب ثم أخذ يساعد كاتيا في النزول إلى المركب، وهو يقول مخاطباً إياه: «هل أبقيتك في الإنتظار طويلاً يا جوفاني؟»

قال الرجل: «راجعت المطار قبل أن أترك القصر. ولكنني ظننت أنك لن تصل في الوقت المناسب لتحية ضيوفك.»

«القصر؟ ضيوف؟» وأضيف الفزع إلى مشاعرها المضطربة. كيف بإمكانها أن تتعامل مع الضيوف مع كل ما يتفاعل في نفسها من مشكلات؟ وغاصت بين الوسائد الناعمة في قمرة المركب الذي كان ينساب مبتعداً عن المرسى. ونفضت بعيداً شيئاً علق على بزتها الحريرية المختلطة الألوان التي اختارتها للذهاب بها إلى مكتب تسجيل الزواج.

جاء نيكولو ليجلس إلى جانبها متكئاً وهو يقول: «سيكون لنا شقتنا الخاصة الفاخرة في أحد قصور القرن الثاني عشر التي تتصدر القناة الكبيرة.»

قالت مبتدئة بأولى كلمات الدور الذي فرضته على نفسها، وقد تجلى الإزدراء في صوتها: «ألم يكن في استطاعتك اختيار فندق مناسب؟» واحتد صوتها وهي تضيف: «لم أكن أتوقع أن أقضي شهر العسل أخدم في شقة.»

قال نيكولو يطمئنها: «ليس عليك أن تقومي بذلك. الشقة مزودة بطاقم كامل من الخدم الذين يقومون بالعمل لمدة أربع وعشرين ساعة.»

قالت: «شكراً. لقد ظننت للحظة انني وقعت في غلطة شنيعة إذ ارتبطت برجل شحيح. هل الشقة غالية؟»

قطب حاجبيه وهو يرى النظرة الشرهة التي تجلت في عينيها وقال: «كلا... في الحقيقة، ان هذا القصر هو ملكي، أو ملك شركتي على الأقل. لقد أنقذناه من التداعي والانهيار منذ عشر سنوات تقريباً بمساعدة المصرف، وأعدناه إلى بعض سالف مجده وتألقه من الداخل والخارج. حسناً، ما زال علينا أن ندخل إليه بعض التجديدات، ولكن الطابق الأرضي قد حوّل إلى صالة رقص مما أعطى صورة كبيرة عن ثراء القصر القديم ومجده. وهو يستعمل الآن كمكاتب للشركة باستثناء الطابق الأول الذي قسم شققاً للزائرين والوكلاء والزبائن.»

قالت كاتيا بضعف: «فهمت.» دون أن تتأكد من أنها فهمت شيئاً. لقد كان نيكولو مملوءاً بالمفاجآت، ذلك أنه لم

www.elromancia.com

يقنع جدها، فقط لكي يضحي بها، ولكنه يبدو الآن أكثر غنى وثراء مما كانت تظن، على الرغم من تظاهرها بعدم ملاحظتها ذلك. ولا شك في أن الشيء التالي الذي سيخبرها به هو أنه من امراء البندقية، كذلك كان قد أخبرها بأن جذور أسرته تعود إلى أقصى الجنوب.

سمعته يتمتم: «هذا حسن. إنني مسرور إذ لم أخيب توقعاتك وما زلنا في بداية حياتنا. ولكنني متأكد من أنك قريباً ستدركين أن الأشياء التي تأتي بدون ثمن هي قليلة جداً. وهناك ثمن يدفع للرفاهية التي تنتظرنا.»

قال ذلك وهو يشملها بنظراته المعبّرة.

تساءلت هي عما إذا كان على وشك أن يضيف بأنه إنما تزوج منها تبعاً لاتفاق ما، وإنه سيخبرها السبب! ولكنها أبعدت الفكرة من رأسها حالاً إذ تذكرت انها سمعته يقول لجدها إنه لن يهتم بذكر هذا؟

قالت وهي تهز كتفيها: «يبدو لي أن هذا شيء ممل، وأرجو أن لا يشملني أنا أيضاً.»

أجاب: «إنه لكذلك لسوء الحظ، ولكنني متأكد من أنه لن يكلفك فوق طاقتك.» كان في لهجته شيء من الغلظة، كما خيل إليها أنها لمحت شيئاً من الإنفعال في نظرته إليها.

فكرت، وقد قوي عزمها، في أن نيكولو يعرف انها لم تكن بالجاهلة ولا بالغبية.

قال: «إنني سأعقد مؤتمراً صحافياً هذه الليلة للإعلام ولكثيرين من وكلائنا في أوروبا ومناطق أخرى.» وهذا ما كان يعنيه جوفاني حين تكلم عن الضيوف. كنت أرجو أن أعرفك على القصر في وقت الفراغ فأمضي بذلك بعد الظهر معك.»

لم يوضح معنى قوله هذا، ولكن كاتيا لم تكن بحاجة إلى ذلك. فقد كان غرضه واضحاً في الرغبة التي بدت في نظراته التي كانت تحوم على وجهها وهي حافلة بالشوق.

هز كتفيه وهو يقول: «لسوء الحظ، إن تأخر الطائرة لم يكن ليبقى لنا الوقت الكافي لاستقبال ضيوفنا. وعلينا الآن أن ننتهي من آخر ضيف لكي نستطيع أن ننفرد بنفسينا. هل تمانعين بذلك؟»

تساءلت كاتيا ما إذا كان انعدام الحب من ناحية لا يعني أن الزواج سيبقى عذرياً.. وأذهلتها الفكرة كما أفزعتها في الوقت نفسه. كانت كل خلية في جسدها تشعر بقربه، وكان قلبها يخفق كجناحي طائر كما كان فمها ظامئاً إلى قبلاته. ولكن كان عليها أن تذكر نفسها بأنه لم يكن يحبها، وأنه إنما كان يضع قناعاً زائفاً لتمثيل دور العريس العاشق.

أو على الأقل كان مجرد رجل بالغ العافية قوي الرغبة في الحب وواثقاً من نفسه ومن قدرته. وشعرت بالراحة لهذا التأخير، إذ ان كل دقيقة تبعدها عنه، تعطيها الفرصة لتسلح نفسها عقلياً وشعورياً ضده.

تنفيذاً للخطة التي وضعها عقلها المعذب، تصنّعت الابتهاج وهي تقول: «طبعاً لا أمانع، فأنا شديدة الولع بالاجتماعات.»

كانت تقصد أن يعتقد أنها تزوجت منه طمعاً في ثروته وأنها لا تكن له أية عواطف صادقة، وبذلك، وهي تطعن كبرياء الرجولة فيه، تستطيع إبقاءه بعيداً عن مخدعها، وتحفظ بذلك البقية الباقية من كرامتها إلى حين تكتشف

www.elromancia.com

السبب في خداعه لها. عند ذلك فقط يكون بإمكانها أن تنقذ نفسها من هذا الوضع الصعب.

قال بخشونة ينبهها إلى هدوئها الظاهر: «أهذا نموذج للبرودة الانكليزية التي تجري في دمك؟ كان الأفضل من هذا الإذعان، لو كنت أبديت شيئاً من التمرد أو الاحتجاج على الأقل.»

عندما أخذها بين ذراعيه، لم تكن قد هيأت نفسها تماماً لمقاومة إرادته المتسلطة وهو يعتبرها ملكاً له. وسرى في جسدها تيار كهربائي بعث فيه رعشة شاملة.

أدركها الفزع وهي تدرك انه إذا كان عقلها قد رفضه فإن كل جزء من جسدها عليه أن يتعلم نفس الدرس. لقد طعنت، في الحقيقة رجولته في الصميم، ولكن بدلاً من أن تدفعه هذه الطعنة إلى الانسحاب أصر على أن يأخذ بثأره لهذه الاهانة وذلك بمهاجمتها تلك حين لم تكن على استعداد لمثل هذا العقاب، مما لم يترك لها ما تفعله سوى التألم بصمت.

تركها فجأة من بين ذراعيه مشيحاً بوجهه عنها وهو يتأوّه.

على الرغم من مشاعرها المعذبة، بعثت تعابير وجهه الجامعة بين اليأس والحزن ابتسامة باهتة إلى شفتيها كما بعثت شعوراً بالفوز إلى قلبها. لقد عاملها هو وجدها معاملة مرعبة، وإن التسبب في إصابته بالخيبة والإحباط هو أقل ما يمكن من الانتقام لما فعله بها. ولكنها كانت تعرف أن هذا الانتقام هو مؤقت، إذ أن رجلاً يمتلك مثل جاذبية نيكولو الحميمة لا يمكن أن يقع طويلاً فريسة الإحباط والخيبة. ولكنه، على كل حال

سيدرك انه ليس ذلك الشخص الذي لا يمكن لامرأة أن تقاوم تأثيره.

نظر إليها نظرة لم تعرف هي ما إذا كانت تحوي ضيقاً أم يأساً مبطناً بالسخرية وهو يتخلل شعره بأصابعه قائلاً: «تعالي.» قال ذلك بلهجته المترفعة التي كانت دوماً موجودة تحت قشرة من سحره الذي يطبع شخصيته كما عرفتها.

استطرد قائلاً: «ها قد دخلنا القناة الكبيرة وحالاً سنجتاز سان ماركو. إنه مشهد لا ينسى. وخاصة عند مغيب الشمس.»

وبعد ذلك بثلاث ساعات قال نيكولو لها وهو ينظر إلى وجهها: «إنك ستكونين مدار اهتمام الجميع وسيجعل هذا عينيك الجميلتين تتألقان بالسحر.»

قالت وهي تنظر في مرآة بقربها: «طبعاً.» وهنأت نفسها لقدرتها على إخفاء مشاعرها المضطربة، عن نظرات نيكولو المتفحصة. كانت تسعى إلى رسم صورة للسلوك الذي ستتخذه دون أن تثير شكوكه. وبين الآلام التي تملأ قلبها، كان ثمة توقع لتصرفه عندما يرى كاترينا لورنس الجديدة تبرز بكل شراستها وحدة طباعها. وبقليل من الحظ سيعترف هو بالغلطة الكبيرة التي وقع فيها ومن ثم يحاول فك رباطهما، غير المقدس، ذاك. ولكن لا، بل بكثير من الحظ، إذ انها ما لم تكتشف الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى هذا الارتباط، فإنها لن تستطيع الحكم على أهمية الدور الذي عليها أن تقوم به.

قالت كاذبة وهي تنظر إلى صورتها في المرآة: «إنني أنتظر ذلك بغاية الشوق. إن ذلك سيكون وكأنه حفلة ثانية

www.elromancia.com

للإستقبال بعد العرس. ما عدا انه لن يعرف أحد طبعاً انني العروس.»

قال نيكولو بلطف: «هنا، أنت مخطئة يا عزيزتي. ستجدين أن لي بعض الشهرة هنا في البندقية، والكل يعرف الآن انني تخليت عن عزوبتي في سبيل فتاة أجنبية رائعة الجمال. حتى ولو لم يعرف الناس جنسيتك بعد، وعلى الرغم من أنني مشهور بتذوقي الجمال، فما أن أقدمك إلى بعض المعارف حتى تنشر الأخبار كالنار في الهشيم.

«أرجو أن لا يخيب أملهم.» قالت ذلك بشيء من الحدة والنزق وهي تعبث بثوبها الحريري غير مكترثة لمديحه هذا، واستطردت: «لو كنت قد نبهتني هناك، إذن لاشتريت بعض الثياب الغالية من لندن قبل حضوري، بدلاً من أن أنتظر شراءها هنا في إيطاليا. شيء يناسب زوجة رجل ثري.»

أجاب: «أحقاً؟ ولكنني أعتقد أنك هناك اخترت ارتداء ثوب خاص لهذه الليلة حيث انه يحمل ذكريات سعيدة.»

كانت قد اشترت ذلك الثوب البرتقالي من الشيفون من حانوت أزياء أثناء الأوكازيون في لندن. شاعرة بالزهو لامتلاكها مثل هذا الثوب الرائع الطراز بمثل ذلك الثمن البخس. كانت فتحة العنق شبه المستقيمة ذات ثنيات رقيقة بينما كان ينسدل على خصرها النحيف بانسجام وجمال. وكانت التنورة ذات ثنيات تستدير حول جسدها بشكل جميل.

كانت قد ارتدت هذا الثوب في حفلة عشاء راقصة أقيمت في منزل ريتشارد كارفيل على شرف وكلاء سباق الخيل.

وكان ذلك أثناء الأسبوع الأول من عودتها إلى ساديغهام. وطبعاً، كان نيكولو هناك.

لقد رقصا، في تلك الحفلة، معاً، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أخذها فيها بين ذراعيه. إنها لم تذق أي شراب كحولي، ولكنها شعرت بنفسها فوق السحاب، ولم تشعر بالخوف، كانت مثل الفراشة التي يجذبها نور المصباح الذي سيوردها الهلاك.

لقد ظهر انها لم تكن تملك الإرادة الكافية التي تمكنها من حماية نفسها من المغناطيسية القوية المنبعثة من هذا الرجل التي سيطرت عليها. لقد أدركت الآن انها كانت تنحدر لتصل إلى حيث استسلامها النهائي، ليضحك هو منها، عند ذاك ساخراً من ضعفها.

أبدت حركة تنم عن عدم الموافقة، وقد صممت على تجاهل هذا الطعم، ثم قالت: «ولكنني الآن في البندقية، وأنا أريد أن أملأ خزانة ثيابي بالثياب الغالية.»

أجابها نيكولو بلهجة بان فيها العتاب: «لا تحكمي على الشيء من ثمنه يا كاتيا. فإن ذوقك الطبيعي ممتاز. حتى ولو لم يكن كذلك، فإن جمالك كفيل بأن يغطي كل نقص في الثوب ويسبغ عليه التألق مهما كانت حالته مزرية.»

تراجع قليلاً إلى الخلف ومضى يتفرس فيها من رأسها حتى أخمص قدميها، بعين نقادة ثم قال: «ألا تضعين قرطين في أذنيك لهذه الليلة؟»

هزت رأسها نفياً وقد عجبت لاهتمامه بالأشياء التي تسرها. وكانت هي قد فكرت في أن حليها العادية قد لا تناسب المحيط الثري الذي تعاشر، ولهذا فضلت عدم

وضع قرطين في أذنيها. ولكن نيكولو قد وضع أمامها الآن فرصة تستطيع أن تستغلها لتمثيل دور المرأة الجشعة، وسرعان ما بادرته قائلة: «ليس عندي شيء مناسب. كيف لي أن أضع مجوهرات مزيفة بينما كل النساء حولي يضعن مجوهرات حقيقية؟ ألا يعطي هذا صورة سيئة عنك؟»

لوى نيكولو شفتيه للحظة، وما لبث أن وضع يده في جيب سترة السهرة التي يرتديها وهو يقول: «إنك لن تشعري بخيبة الأمل عندما تضعين هذه، كما أظن.»

ومد يده إليها بعلبة من الجلد الأسود ضغطت عليها بأصبعها لتنفتح عن قرطين ذهبيين صنعا بشكل حراشف السمك، كانا يتألقان على بطانة العلبة البيضاء اللامعة. وفتحت فاها وقد أذهلها جمال ما ترى من الفن الذي اشتهر به صانعو المجوهرات في البندقية.

لوى نيكولو شفتيه إزاء صمتها الذي ساءه، وهو يقول: «ليس من الضروري أن تشكريني الآن. وكما قلت، إن عدم استطاعتك مجاراة غيرك من النساء الثريات، سيعطي صورة سيئة عن سخائي، وإلى جانب هذا، فإن في استطاعتي الانتظار حتى الليل لكي يكون بإمكانك التعبير عن عرفان الجميل قولاً وفعلاً.»

تناول من يدها العلبة ليضعها على منضدة الزينة الجميلة جداً في غرفة النوم المزدوجة التي أدخلها إليها، ثم أخذ القرطين وابتدأ يضعهما في أذنيها بينما وقفت هي، دون حراك إلى أن سمعت آهة الاستحسان تنطلق من بين شفتيه. وما لبثت أن استدارت إليه تقول بدهشة: «كيف أمكنك العثور

على قرطين بكباسين حيث أن الاقراط الثمينة تصنع فقط للآذان المثقوبة؟ أليس كذلك؟»

قال: «هل ظننت أنني لم أكن ألاحظ كل جزء من جسمك الجميل البادي للعيان؟ أو أنني لا أطوف على كل محلات المجوهرات في البندقية لأعثر على ما أريد؟ كلا يا عزيزتي. لن ترى امرأة أخرى في القصر، هذه الليلة، تضع قرطين جميلين كهذين القرطين. فلقد صممت خصيصاً بهذا الشكل حسب تعليماتي أنا.»

قالت: «أتعني أنك أوصيت عليهما عندما عدت من انكلترا إلى البندقية بعد أن اتفقنا على الزواج؟» وقاومت رعشة اعترتها وهي تفكر، ما الذي يخبئه لها للمستقبل إذا كان قد قدم سلفاً مثل هذا الثمن لخدماتها؟

هز رأسه، وكأنه ينفي تصوراتها هذه، وهو يقول: «إن الحرفيين أمثال ماريو برينسيب يحتاجون إلى الوقت الكافي لتجسيد أجمل فنونهم. لقد أوصيته على هذين القرطين بعد يومين من لقائي بك.»

«أحقاً؟» قالت كاتيا ذلك وهي ترفع يدها إلى عنقها. وبعث ملمس الذهب البارد شبه شعور بالإغماء سرى في جسدها وهي تتساءل، هل كان غرضه، من القوة والصلابة إلى هذا الحد؟ لقد أفزعتها فكرة وقوعها فريسة لمثل هذه الإرادة الفولاذية. ولقد أراد دوماً أن يفصلها عن جدها سواء بالشدة أم باللين. إن كل حركة يقوم بها تؤكد هذا. والجد المسكين لم يكن له من القوة ما يقاومه بها. هل كان هذا انتقاماً؟ هل كان ينتقم بذلك من خطأ كان جدها قد ارتكبه تجاهه ليكفر هذا عن خطاه بتقديم أعز ما عنده وهو

حفيدته؟ لقد قرأت كثيراً عن مثل هذه الأمور ولكنها لم تتصور رجلاً يحمل نفسه عبء مرافقة إنسان لا يكنُّ له هو أية عاطفة؟

قطع نيكولو سلسلة أفكارها وكأنما يؤكد تساؤلها بينها وبين نفسها، وذلك بقوله بلهجة مترفعة: «إنني أريد منك أن تضعيه يوم عرسنا، أعني عرسنا الحقيقي وهذا ما يجب أن تفعليه. أعني عرسنا الحقيقي وليس ذلك التسجيل المضحك الذي أجريناه هذا الصباح. وغداً ستقابلين مصمم أزياء ليصنع لك ثوباً للزفاف يليق بجمالك الانكليزي وبهديتي لك.»

«نيكولو...» لفظت اسمه بلهجة تجلي فيها ما تعنيه من عذاب. كان ثمة شيء ما في ملامح وجهه الجانبية وهو يحوّله عنها، مما زاد في معاناتها. قد يكون ذلك لشعورها بأنه مصمم على أن يزيد من قوة الرباط الذي يجمع بينهما، وهذا ما عليها هي أن تقاومه بكل ما تملك من قوة.

واستدار ينظر بعينيه السوداوين إلى وجهها الشاحب وهو يقول: «نعم... هل ثمة ما يضايقك؟»

قالت وهي تهز كتفيها: «كلا.. لا شيء في الحقيقة.»

حدثت نفسها بأنه ما زال الوقت مبكراً لتصارحه بكل شيء. ما زال هناك الكثير مما لا تعرفه. وكل ما تستطيع عمله هو أن تقوم بدورها لبعض الوقت آملة أن تجد الفرصة لاكتشاف غرض نيكولو. لا بد أن تكون هناك مصلحة تعود عليه من وراء تظاهره هذا ستكتشفها هي مع الوقت. وإذا كان بإمكانها تعطيل هذه المصلحة، فستفعل ذلك. ولكنه كان ما يزال ينتظر وقد قطب حاجبيه وهو يراقبها بشيء من

الإنزعاج مما حملها على أن تفتش عن سبب لإيقافها له.

قالت تسأله بمرح: «كنت أتساءل عما إذا كان اشتراط جدي في إجراء زواج مدني قبل أن نترك انكلترا، هذا الشرط قد أزعجك.»

قال نافياً ظنها هذا: «كلا. ولو كان عندي، أنا نفسي، حفيدة جميلة مثلك لأصررت على إتمام زواجها قبل إرسالها مع رجل مثلي «زير نساء.» إضافة إلى ذلك، فقد أردت أن أمنحك الفرصة لدعوة جميع أصدقائك ليشاهدوا سعادتنا ويشاركونا الاحتفال. وإنني أشك في أن الكثيرين منهم كان بإمكانهم السفر إلى البندقية حتى ولو دفعنا لهم أجرة السفر وذلك لمشاهدة الزواج الرسمي. وإنني آسف لاضطراري لإبعادك عن حفلة الاستقبال تلك قبل نهايتها لكي نلحق بالطائرة، ولكنني أظن أنهم في الحفلة، قد استمروا في بهجتهم من دوننا.»

لم تستطع أن تخفي المرارة في صوتها وهي تقول: «نعم إنني متأكدة من ذلك.» ثم اختفى كل أثر للبهجة بالنسبة إليها، في لحظة واحدة. لقد نطق نيكولو بكلمة واحدة صادقة، على الأقل، منذ عرفته، وذلك عندما وصف نفسه بكلمة «زير نساء» فقد كان إلى جانب كل هذا الثراء، رجلاً ساقطاً أخلاقياً.

«هل أنت نادمة على ذلك؟» قال هذا وقد أصبح أمامها بحركة مفاجئة، وبأصابعه الفولاذية رفع ذقنها ينظر إلى ملامحها متحدياً يحاول قراءة مشاعرها وكأنما هي مكتوبة بوضوح على جبينها.

قالت متذمرة: «كلا بالطبع.» ولكنّ شعوراً بالخطر

حذرها من أن تكشف أوراقها فقالت مستطردة: «وهل يمكنني أن أندم لكوني تزوجت منك يا نيكولو؟»

لقد حاولت أن تضمن جوابها نوعاً من التأثر، ولكن في آخر لحظة تجلى ألمها الخفي لتبدو لهجتها أقرب إلى الشجار.»

قال نيكولو: «لا أدري يا كاترينا.» وبعث جواب نيكولو الهادىء موجة من التوتر العصبي في جسدها. فقد كان تأثير جسده وهو يزداد اقتراباً منها، على أعصابها، بالغاً إلى حد لا يمكنها احتماله. وتابع هو قوله: «ولكنني أحذرك من مغبة ذلك لأنني لن أدعك ترحلين أبداً. لأنني شديد التمسك بما أملك، وبعد الزواج الرسمي، سيكون ارتباطنا أقوى وأشد من الارتباط التقليدي وحده.»

أغمضت عينيها كي لا ترى وجهه وقد استبد بها الذعر لشعورها بأن تأثيره الجسماني عليها ما زال بنفس القوة التي كان عليها عندما وقعت في حبه. ولكن هذه حماقة بالغة، إذ كيف لها أن ترغب في رجل تصرف معها ومع جدها بمثل تلك الدناءة؟»

أطلقت صرخة قصيرة وهو يترك وجهها ليجذب جسدها إليه يعانقها بكل حرارة العاشق. ولم تستطع أن تتجنّب شفتيه، لتقع تحت تأثيره الذي كان قد أعماها عن حقيقته الخداعة.

عندما أطلقها من بين ذراعيه، كانت تهتز لفكرة أنها قد تلقت تحذيراً بالنسبة إلى تصرفاته في المستقبل. ذلك أن زواجهما قد يكون زواج مصلحة، ولكنه ينوي الاستمتاع بكل ما يمنحه إياه المجتمع والاعراف من حقوق زوجية.

قال وهو ما زال قريباً منها: «هل فهمت ما أعنيه؟»

ازداد اقتراباً منها لدرجة انه رأى شرايين عنقها تنبض بعنف، وسمع تنفسها السريع وأحس بخوفها الفجائي.

كان لها أن تهنىء نفسها إذ استطاعت أن تخدعه بتغيّر سلوكها. وكانت تفترض أن تجعله يعرف انها لم تعد تلك العروس الغافلة التي ظفر بها، كانت تفترض أن ذلك لا بد أن يستغرق بعض الوقت، ولكن يبدو أنها قد قللت من شأن حساسيته البالغة، ولقد أفسد شعورها بالنصر، إدراكها بأنها إنما تلعب بنارٍ هي أخطر مما كانت تتوقع.

لكنها كانت متأكدة من شيء واحد، وهو أنها يجب أن تمنع بأي شكل كان، زواجهما رسمياً. وقبل أن يحدث هذا ستكون قد وجدت طريقاً للهرب. قد لا يكون هذا سهلاً، هذا صحيح، ولكنه قطعاً أكثر سهولة منه بعد أن تكون قد أجبرت على الإرتباط الأبدي.

قال نيكولو: «إنني بانتظار جوابك يا كاترينا؟» وكان هذا سؤالاً.

في انكلترا رأت منه فقط الجانب الجذاب الرقيق من شخصيته ولكن، هنا على تراب وطنه، برز أمامها الجانب الصلب المتعجرف منها. وصعد توترها من ضربات قلبها وهي ترى عينيه القاتمتين تلحان عليها بالجواب.

حملت نفسها على التقليل من شأن هذا الوضع باستحداث رنة حدة واحتجاج في صوتها وهي تتناول منديلاً ورقياً تمسح به شفتيها بوقار وعدم اكتراث انعكس تأثيرهما على ملامح نيكولو عبوساً وتجهماً، قالت: «بحق السماء، ألا تظن أنني لا بد أن أكون متضايقة نوعاً ما بعد ذلك السفر

المزعج؟ أكان ينبغي لك أن تقوم بكل هذه التصرفات فقط لأنني متعبة وعليّ مواجهة عدد كبير من الغرباء؟ بينما أعلم أنني أسوأ النساء لباساً هناك؟»

قال وقد التوى فمه بتلك الابتسامة التي أشعلت قلبها يوماً ما: «أهذا هو كل شيء؟ سامحيني يا عزيزتي إذ كنت ظننت قبل لحظة واحدة أنني قد أخطأت وتزوجت من شقيقتك التوأم. ذلك أنني لم أر فيك تلك المرأة التي كانت تقف بجانبي هذا الصباح، أمام مكتب تسجيل الزواج، مستعدة لأن تكرّس حياتها لأجلي. ولكنني أعلم الآن أن جرح خيلائك وغرورك هو الذي بعث الاحمرار إلى وجنتيك والحدة في صوتك. يمكنني أن أفهم ذلك. ولكن، كوني واثقة من أنك تقللين من شأن مظهرك أمام الضيوف. والآن، هل ننزل إلى القاعة لنتأكد من أن كل شيء جاهز للضيوف؟»

بدأ قوله هذا وكأنه سؤال، ولكن الطريقة التي دفعها فيها من يدها جاراً إياها معه على السلم إلى أسفل، لم تدع لها مجالاً للتردد.

نزلت كاتيا معه ليس لأنها كانت تريد ذلك، ولكن بصفتها كاترينا كاشياتور زوجة نيكولو كاشياتور، وهي ستستمر في تمثيل هذه الشخصية إلى أن تكشف الغطاء عما يكمن خلفها، ومن ثم تجد طريقة تهرب بها من كل هذا العذاب.

زودتها الحفلة غير المتوقعة بالوقت الذي أمكنها من أن تفكر في وضعها بأناة وروية، إنها تريد أن تستأصل المشاعر التي ما زالت مليئة بشكل لا يصدق بنيكولو، وذلك على ضوء الحقيقة التي اكتشفتها. ثم ماذا عن هذه الليلة عندما تنتهي الحفلة ويعودان إلى غرفة النوم! ولم تكد

تصدق أنها منذ ساعات فقط، كانت تنتظر مجيء الليل بفارغ الصبر، وهي متأكدة من أن نيكولو سيجعل من أول تجربة لها في الحب ذكرى لا تنسى.

لو بإمكانها فقط أن تعتقد أن نيكولو ينوي أن يتركها وحدها. ولكن هذا الاعتقاد كان مستحيلاً. وارتجفت. لا بد أن تجد عذراً، عندما يحين الوقت، تستعين به على تجنّب إكمال الزواج تلك الليلة أو أية ليلة أخرى. ومهما كانت أخطاء نيكولو فهو لا يمكن أن يأخذها دون إرادتها. ذلك أن اكتشافها لشخصيته المزدوجة قد قتل في نفسها كل أثر لحبها له، ولم يبق سوى أوهام خطرة تحطم الروح.

www.elromancia.com

الفصل الثالث

كانت الساعة الواحدة صباحاً عندما خرجت كاتيا من قاعة الرقص، تاركة خلفها المصابيح المتألقة والستائر المخملية ذات اللون الأحمر الداكن بأحزمتها الذهبية، والأصوات المختلطة، لتفتش عن ملجأ في الحديقة المجاورة.

كانت الموسيقى وأصداء الضحك تنبعث من داخل القصر، وفي الحديقة، كان الجو منعشاً مشبعاً بأريج الأزهار.

بينما يتحول زورق صغير إلى القناة الضيقة التي تجري بجانب القصر، ليرسو في المرسى الصغير، وبينما كانت تفتنها الأشجار المشرفة عليه ومنظر سلال الزهر المتدلية من حاجز الشرفة، توقعت كاتيا ان تجد مكاناً تستطيع فيه أن تستنشق الهواء النقي، وتنسى مؤقتاً حالة اليأس التي تثقل كاهلها. ولكن الواقع تجاوز كل توقعاتها، فوجدت ضالتها المنشودة إذ أن الأنوار التي وضعت بين أغصان الأشجار لم تكن تكشف المكان الذي كانت تنشده فقط، بل كشفت الزوايا حيث كانت دوالي العنب تزحف على شبكات العرائش والأشجار المنتصبة حيث يمتزج حفيفها بنسيم الليل فينعش النفس.

ولفت انتباهها حاجز ابيض من الحجر يشرف على القناة الكبيرة، وقد التوى بشكل مقعد مغطى بحشية وثيرة. وجالت

كاتيا بأنظارها في تلك النجوم التي ترصع ظلمة الليل بينما هي راكعة على الحشية الناعمة، وقد ابتعدت بذهنها، مؤقتاً، عن كل متاعبها. وكانت الأنوار المنبعثة من الفندق القريب تكشف صف الزوارق المربوطة إلى مركزها المخطط باللونين الأحمر والأسود. وكانت المصابيح فيها تتألق بينما هي تتأرجح فوق الماء بخفة. وبعيداً، على الضفة الأخرى، كان في استطاعتها أن ترى هياكل سوداء لأقبية تعود إلى كنيسة «سانتا ماريا» التي يرجع تاريخ بنائها إلى القرن السابع عشر حين أقيمت، احتفالاً بذكرى زوال وباء الطاعون من المدينة.

تثاءبت فجأة، فرفعت يدها تغطي فمها براحتها برغم عدم وجود من يشاهدها. لقد مضت ثماني عشرة ساعة منذ نهضت من فراشها، في الصباح السابق، وذلك في منزل جدها في قريتها ساديغهام. وفكرت، بشيء من العجب، في هذا الوقت القصير الذي أصبحت فيه امرأة متزوجة، لتكتشف أنها كانت قد خدعت بكل قسوة ودناءة، ثم تسافر بالطائرة عابرة أوروبا لتضع على وجهها قناعاً باسماً يخفي غضبها وما تشعر به من إحباط وهي تستقبل المدعوين في حفلة الاستقبال التي اقيمت في قصر زوجها.

كانت، دون شك، تروح وتجيء وتتصرف، كل ذلك على حساب أعصابها. ولكن، الآن، إذ تغمرها طمأنينة الهدوء الذي تسبح فيه هذه الحديقة الغنّاء، يتجمع كل التعب الذي عانته اثناء مرور تلك الساعات، في هجمة شرسة تجتاح كيانها، ولكنها ما لبثت أن رحبت بهذا وهي تفكر في أن

www.elromancia.com

التعب يشكل لها عذراً معقولاً للتخلص من ليلة الحب تلك مع نيكولو. ذلك أنه لن يعجبه أن يأخذ إلى مخدعه امرأة مرهقة. ودعت الله أن يساعدها فلا يجعل نيكولو يصر على استيفاء حقوقه من امرأة شبه نائمة، مهما كانت نوعيته الأخلاقية.

«أوه، يا للمصادفة الحسنة، ها أنت ذي تستمتعين بنسيم الليل وحدك «يا ماركيزة»...

كان صوتاً رجالياً رقيقاً انطلق فجأة من خلف كاتيا هبت هذه واقفة على قدميها من قوة المفاجأة وقد قطبت جبينها وهي تستدير على أعقابها وقد استبدت بها الدهشة. كيف حدث واكتشف هذا مكانها؟

استطرد المتكلم: «اسمحي لي بتقديم نفسي. إنني «سيزار برونيللي» وفي خدمتك يا ماركيزة.»

كان فتى وسيماً في أواخر العشرينات من عمره، لا يزيدها كثيراً في الطول، ذا شفتين رقيقتين وعيني قرد تلمعان بسخرية. وكان يبدو حسن الهندام في بذلة السهرة الأنيقة.

حملت كاتيا نفسها على مد يدها إلى يده الممدودة إليها وهي تقول: «إني مسرورة بمقابلتك يا سنيور برونيللي.»

لاح على شفتيها طيف ابتسامة حين رفع يدها إلى شفتيه يطبع عليها قبلة بكل تهذيب.

قالت: «أظنك أخطأت في معرفتي. إنني زوجة نيكولو كاشياتور ولست ماركيزة.»

هز رأسه موافقاً على كلامها دون أن يبدو عليه الاقرار بالخطأ وهو يقول: «كاترينا كاشياتور، ربما كانت الطريقة التي تحدثت بها إليك سابقة لأوانها. ولكن، إذا حدث في ما

بعد وأسأت إليك في إظهار توقعاتي بالنسبة إلى المستقبل، فإنني عند ذاك، أقدم اعتذاري.»

قالت: «إنني لست مستاءة ولكنني مستغربة.»

كان ذهنها في تلك الأثناء، يعمل جاهداً لفهم ما قد سمعته الآن. قد يبدو اعتذاره بريئاً، ولكن، كان ثمة شيء ما في تصرفات ذلك الشاب. شيء هو الحذر ممزوج بالرغبة في تداول الحديث. وما لبث التقطّب أن عاد إلى جبينها وهي تقول: «أتريد أن تخبرني أن نيكولو في الطريق إلى أن يرث لقب «الماركيز؟»

ارتفع حاجبا الشاب بدهشة وهو يقول: «كاشياتور؟ طبعاً لا. إن نيكولو كاشياتور هو سليل أسرة من الفلاحين قد عاش أجداده بعرق جبينهم وراء قطعان الماشية فوق تلال «كالابريا». وبدت في صوته نبرة ساخرة بعثت الاحمرار إلى وجهها. فقالت بحدة: «إذا كان الأمر كذلك، فإن انجازات نيكولو تستحق اكثر من مجرد الاستحسان.» وعجبت إذ وجدت نفسها تهب إلى الدفاع عن نيكولو.

أجاب لاوياً شفتيه: «ربما، من ناحية أخرى، فإن والده هجر تلك الحياة مع الماشية ليستغل أمواله في مشاريع أخرى وسرعان ما بدأت أحوال أسرته في التحسن بشكل لا يصدق... كلا...» وسكت الشاب وهو يجيل انظاره في السماء المظلمة ثم استطرد: «إن أسرة كاشياتور ليست الآن بحاجة إلى المال لشراء أي شيء ولكن، ما هم بحاجة إليه هو المركز النبيل الذي يتماشى مع ثرائهم.»

شعرت كاتيا في أعماقها باهتمام مفاجيء دفعها للقول: «أراك تحاول إهانة زوجي في منزله.» وحرصت وهي

تقول ذلك على أن لا تظهر اهتمامها بما تقول إلى أن ترى ما وراء ذلك مما قد يفيدها.

استطردت: «إنني لا أعرف من أنت.»

انحنى قائلاً: «سيزار برونيللي. إنني أسامحك لنسيانك هذا، فقد كان هذا اليوم مليئاً بالوجوه والأسماء الجديدة بالنسبة إليك. وعلى الرغم من لقبك الموروث فإن اللغة الايطالية ليست لغتك الأولى. أليس كذلك؟ ولكن، متى كانت الحقيقة إهانة، يا ماركيزة؟»

أجابت: «منذ قرنتها بتفسيراتك يا سنيور.»

توقفت عن الكلام تنتظر الاعتذار الذي لم يحصل. فتابعت تقول: «أظن أن الوقت قد حان للعودة إلى الحفلة.»

تحركت تهم بالوقوف آملة أن يحثه عدم إظهارها الاهتمام بالموضوع، على الانطلاق بحديثه، ولكن، قبل أن يتابع، إنزلق كعبا حذائيها العاليان على المصطبة الحجرية المصقولة تحتهما مما حملها على الوقوف وهي تعرج بألم.

قفز سيزار برونيللي حالاً إلى أمامها يسألها وهو يحاول مساعدتها: «هل أصابك ضرر يا ماركيزة؟»

قالت: «كلا. شكراً.» وبرغم ما في كلمتها الصغيرة هذه من رفض له، فإنه تقدم يمسك ذراعها يساعدها على التقدم، بينما استطردت هي تقول: «أرجوك أن لا تخاطبني مرة أخرى بهذا اللقب السخيف غير المعقول.» وشعرت بيده تضغط على مرفقها مثبتاً إياها وهو يقول بلطف: «وبماذا أخاطب، إذن، حفيدة الماركيز؟»

«ماذا قلت؟» ولم تمنع معاناة كاتيا ضحكة قصيرة من أن

تنطلق من فمها وهي تلقي عليه هذا السؤال، وتابعت: «جدي ماركيز؛ لا بد أنك مجنون أو ثمل.»

قال سيزار برونيللي بلطف: «إنك إذن، لا تعلمين. أظن أن نيكولو كاشياتور يريد أن يبقي الأمر سراً إلى أن يربطك برباط الزوجية نهائياً. ولكن، كيف استطاع أن يقنع جدك بكتمان الأمر؛ ولماذا بقيت أنت جاهلة ذلك؟»

فكرت في أنها يجب أن تدعه لتخيلاته هذه التي لن تنفعها في شيء وتعود إلى الحفلة. ولكن شعوراً خفياً سمرها في مكانها لتقول: «لأن كل القضية هي من نسج خيالك.»

قال: «كلا، بل هي الحقيقة. ويمكنني أن أقسم على أن انطونيو لورنزو هو دوق «كاستيلون» لقد استغرقت محاولات المحامين الايطاليين للعثور عليه وقتاً طويلاً جداً بعد أن توفي المركيز العجوز دون وريث من صلبه، وإنما ابن عمه، جدك، الذي كان متوارياً في قرية صغيرة في انكلترا.»

ابتسم كاشفاً عن أسنان مثل قطاع الطرق البيضاء وهو يتابع: «انطونيو لورنزو هو وارث إمارة دي كاستيلون المفلسة والغارقة في الديون في ولاية توسكاني، انطونيو لورنزو وحفيدته غير المتزوجة والرائعة الجمال... المستقبل يا ماركيزة... يا جوهرة النبل التي تزيّن تاج كاشياتور التجاري...»

لم يكن ثمة مجال لانكار رنة الصدق في صوته، التي بعثت الرعشة في أنحاء جسمها. وتساءلت إن كان يمكن أن تكون القضية بمثل هذه البساطة والفظاعة معاً. يجب أن

www.elromancia.com

تتحقق من ذلك لأنها، إذا كانت هذه هي الحقيقة فإنها ستوضح جزءاً كبيراً من القضية الغامضة.

ابتدأت تقول بحذر: «إذا كان ما تقوله صحيحاً يا سنيور برونيللي.» فقاطعها: «ناديني سيزار من فضلك كما يفعل الجميع.»

تابعت كاتيا كلامها متجاهلة مقاطعته: «فإنني أخبرك بشكل قاطع أن جدي لا علم له بالأمر.»

أجاب: «وأنا أقول لك أنك إذا كنت حقاً تعتقدين بذلك فإنك مخدوعة. ذلك أن لي اتصالات ممتازة مع رجال القانون الذين قاموا بالتفتيش عن وارث اللقب. وكان ذلك موضوعاً صغيراً ذا أهمية، وقد فكرت في أنه قد يسلّي قرائي عند إتمامه، وقد حدث هذا فعلاً. إذ أن نجاحه النهائي وزعته وكالة الأنباء بقلمي في كل أنحاء ايطاليا.»

قالت وقد غمرها شعور غريب بأن الأمور ابتدأت تتضح في ذهنها.

«هل أنت مخبر صحافي؛ مخبر هنا في القصر؟» فلوى سيزار برونيللي برأسه وهو يقول: «أفضل أن أدعى صحافياً وليس مخبراً حيث انني لا أسعى وراء الأخبار، ولكنني اكتشف وأتابع قصصي الخاصة. وهنا في القصر، طبعاً، ولِمَ لا؟ ان أهمية المقال الاجتماعي لا تقل عن أهمية مقال يتعلق بالسيارات التي يعقد زوجك عنها مؤتمراً صحافياً هذه الليلة. وسواء شئت ذلك أم أبيت يا سينورا، فأنا هنا بدعوة رسمية.»

تساءلت كاتيا، لماذا بحق السماء، لم يخبرها جدها بكل هذا؛ وقفز الجواب حالاً إلى ذهنها المضطرب. وهو أن ذلك

لأن نيكولو منعه من أن يخبرها. لأن نيكولو لم يشأ قط لها أن تكتشف السبب في مطارحته لها الغرام، قبل أن ترتبط به للأبد ولا يبقى هناك مجال لها للفرار. ولكن، شكراً لله لاتضاح الحقيقة لها بما سمعته الآن، لقد فشلت خطته، قد يكون بإمكان نيكولو أن يفعل أي شيء ما عدا جرها إلى مذبح الكنيسة ليربطها به إلى الأبد، إلا إذا خدّرها أولاً. يكفيها الارتباط المدني الذي تستطيع الفكاك منه على الأقل، بخلاف الارتباط الديني.

جاءها صوت برونيللي يردها إلى الواقع بقوله: «يبدو انك متضايقة يا ماركيزة. سامحيني إذا كنت قد سببت لك الألم عندما قلت إنه يخيّل إليّ أن زوجك إنما كان يسعى وراء اللقب وليس وراءك. لقد كان نيكولو دوماً خبيراً جداً بجنس النساء، وأكون مجنوناً لو فكرت لحظة في أن ثمة شيئاً غير جمالك اجتذبه إليك.»

ابتسم لها ولكنّ عينيه كانتا تراقبانها وهو يتابع قائلاً: «إنني مثلاً، لم أصدق أبداً أنه كان مغرماً بجينا كابريني، وأنهما اتفقا على الزواج إذا هي استطاعت أن تتخلص من زوجها قانونياً دون التسبب بفضيحة تهدم أمبراطورية كاشياتور. ذلك لأن كل انسان كان يدرك أن زوج المرأة جوزيب كابريني لم يكن من الحماقة بحيث يعطيها ما تطلب.»

«جينا كابريني؟» انساب هذا الإسم من بين شفتيها الباردتين قبل أن تستطيع ضبط لسانها، وذلك عندما واجهت الجانب الآخر من شخصية نيكولو المخادعة. لم يكن بإمكان سيزار برونيللي أن يعلم باكتشافها أنه قد غرر

www.elromancia.com

بها لتتزوج نيكولو، وهي تستطيع أن ترى بوضوح تام ما الذي كان يفعله، منكراً ما سبق وادعى أنها الحقيقة وذلك لجرها إلى الخروج عن تحفظها.

فجأة، انتبهت إلى حركة في القناة الصغيرة بجانب مدخل الزوارق القادمة. كان ثمة أصوات. ها قد ابتدأ الضيوف في الخروج ولا بد لها من أن تكون في القاعة لتقوم بدور الزوجة إلى أن ترى متى يتوضح كل شيء.

عاد يقول: «ألم يأت زوجك على ذكر جينا قط؟ ما هذا الاهمال؟ إن كل شخص في البندقية يعرف جينا. إنها إحدى أشهر فتيات المدينة، فهي تملك سلسلة من محلات الأزياء في ايطاليا وفرنسا.» وعض على شفتيه وكأنه تذكر أمراً ثم تابع: «ثمة كثيرون سيخبرونك أنها أمضت في أعمالها وقتاً أطول مما أمضته مع زوجها، ولهذا فشل زواجها. كما أن آخرين...»

هز كتفيه، «حسناً، سيخبرونك أن جوزيب كابريني اكتشف أن زوجته تخونه كما أنه شك في شخصية عاشقها ولكنه لم يستطع إثبات ذلك...»

تغلب غضب كاتيا لجرأة الشاب، على رغبتها في سماع المزيد فقالت: «أظنك قلت ما فيه الكفاية.»

سبب لها الضيق والتوتر ألماً مفاجئاً في صدرها ضاق معه تنفسها فرفعت راحتها إلى صدرها وهي تشعر بتسارع دقات قلبها. فإن الشيء الرئيسي هنا هو أن نيكولو حقق أمرين من وراء الزواج منها، الأول هو جعله من الزواج ستاراً يحجبه وعشيقته، وفي نفس الوقت يجعل له صلة بنبلاء ايطاليا القدماء وهذا هو ما يسعى إليه من كل قلبه.

وأنَّ صوتاً معذباً في داخلها، «أوه نيكولو.. كيف يمكنك أن تكون بهذه الدناءة...»

قالت بصوت ينضح بالألم: «إن زوجي...»

قاطعها قائلاً: «زوجك؟ وهل قلت أنا إنه عشيق جينا؟» وارتفع حاجباه بدهشة مصطنعة وهو يتابع: «انك أسأت فهمي يا ماركيزة. لو كان ذلك صحيحاً لما تزوج منك أليس كذلك؟ إلا إذا كان قصده بالطبع، إلقاء جينا خارجاً. وتقول الشائعات إن كلاً منهما يسعى إلى شاهد اثبات ضد الآخر، وبهذا يتحول الإنفصال إلى طلاق.

تصوري الفضيحة. وإذا ظهر أن كاشياتور هو المذنب، فسيكون في ذلك إحراجاً كبيراً له لأن كابريني، الزوج، هو المدير الممول لشركة زوجك.»

لم تكن كاتيا بحاجة إلى كل هذا الشرح للأدلة والإثباتات من برونيللي في ورطتها هذه. لقد كان كل شيء واضحاً. ليس فقط أن موت الماركيز الكبير قد دل على مكان جدها مما جعل هذا معروفاً، وعرّضه إلى مطالبة أسرة كاشياتور له بما يدين لها به، ولكن كان أن دفع الدين بشخصها هي. ولو كان جدها قد أظهر تمنعاً وكراهية لرؤيتها تنقاد إلى زواج دون حب، فإن في امكان نيكولو، دون شك، أن يلطف من الأمر بأن يساومه على ذلك بإلغاء ديون الماركيز الكبير. لا بد أنه فعل ذلك عندما فتح الموضوع مع جدها. وهذا يوضح ذكر كلمة دين في حديثهما الذي سمعته. إنه ثمن صغير يدفع لمصلحة نيكولو.

حدثت كاتيا نفسها وقد توهجت وجنتاها من الغضب، اللعنة عليه.. كيف يجرؤ على معاملتها بمثل تلك العجرفة

www.elromancia.com

والتعالي؟ لا بد أنه سعى جهده لدى جدها لكي يحصل على موافقته، مستخدماً لسانه المعسول في اقناعه بأن نصيبها يكمن في ايطاليا موطن أسلافها. إذ ان جدها لم يكن ليوافق، أبداً، على زواجها لأجل المال فقط.

بدون أية كلمة، تركت ذلك الايطالي المبتسم ومضت، لتجعله يظن أن كل قصصه إنما وقعت في آذان صماء. فلو علم مقدار عرفان الجميل الذي شعرت به تجاهه لكل ما أخبرها به، لما بدا عليه كل هذا السرور الآن.

كانت قاعة الرقص قد أخليت بسرعة. وكان أعضاء الفرقة الموسيقية يحزمون آلاتهم. ولأنها كانت ما تزال ثقيلة الأنفاس، فقد وقفت على عتبة غرفة رائعة الجمال وهي تتمسك بستارة ثقيلة تستند إليها بينما أنظارها على الأرض التي جددت بشكل حسن. إنها تريد أن تكتشف الحقائق. لماذا تشعر بنفسها قد دمرت بهذا الشكل؟ أيمكن لأنها كانت تدعو الله، طيلة الوقت، أن يحدث معجزة ما تجعلها قد أخطأت في فهم الحديث الذي كانت قد سمعته في غرفة جدها؛ وأن نيكولو، في الحقيقة، يحبها قدر ما تحبه؛ أو بالأحرى، قد أحبها؛ ولكنها ردّت على نفسها بعنف، إن المعجزات لم تعد جزءاً من القرن العشرين.

جاءها صوت نيكولو يقول بحدة: «كاتيا، أين كنت؟» وارتفعت نظراتها إلى وجهه العابس وهو يتابع: «كنت قلقاً لأجلك.»

قالت ضاحكة بتوتر: «هل ظننت بأنني هربت منك في ليلة عرسنا؟ ولماذا أفعل ذلك؟»

نظر إليها بعينيه السوداوين يتأملها بهدوء ثم قال: «إنك

لست على ما يرام. لقد أصبحت تصرفاتك غريبة منذ اللحظة التي وطئت بها أقدامك أرض ايطاليا. ماذا حدث لك يا عزيزتي؟»

أجفلت وهي تلمس رنة المحبة غير المخلصة في صوته وقالت له بضعف متجاهلة لهجة القلق في صوته والذي اعتبرته تمثيلاً، وقالت: «لقد شعرت بالضجر طوال المساء. لم أكن ادرك كم ستكون عليه من الكآبة.» فمد يده يلامس وجنتها قائلاً: «يا للصغيرة المسكينة.» فأبعدت وجهها عن يده كمن لسعتها حشرة.

قال لها: «إنها ليست الطريقة التي نقضي بها أول ليلة لنا كزوج وزوجة. إنك تبدين شاحبة جداً. تعالي فقد قاربت الحفلة على النهاية، وسأصعد بك إلى شقتنا، ثم أعود إليك بأسرع وقت ممكن.»

أومأت كاتيا برأسها. لم يكن ثمة فائدة من التحدي، حتى ولو شاءت ذلك. فقد رأت من التعبير الذي بدا على ملامحه أنه، لدى أدنى تردد منها، سيأخذها بين ذراعيه بالقوة.

وكان يسندها بذراعه الملتفة حول وسطها صاعداً بها السلم الرخامي، وصلا إلى الرواق الذي تطل عليه بقية الشقق. وكانت هي تنظر إلى السجادة العجمية السميكة تحت قدميها، مفكرة في أنها لا بد أن تكون ثمينة جداً نظراً لقدمها، لقد سبق وقرأت مرة أن أسوأ ما يمكن أن يفعله انسان، هو أن يعرض سجادة عجمية على الجدار. ذلك أن قيمتها الحقيقية تأتي من الرثاثة، إذ ان مرور الأقدام عليها تمنح الصلابة والاحكام لآلاف العقد فيها مما يرفع من قيمتها.

قال لها وهو يوقفها على عتبة غرفة النوم: «إذهبي إلى فراشك يا كاتيا. لقد أمضيت يوماً شاقاً، وسألحق بك حالما استطيع.»

شعرت بالراحة إذ لم يقبلها قبل أن يتركها. ولما أصبحت وحدها في الغرفة، تهالكت على فراشها وقد راح ذهنها يعمل بسرعة بينما عيناها تجولان في ما حولها، تنظران دون تركيز، في السجادة ذات الألوان المماثلة لألوان صدف اللؤلؤ، ثم الجدران المغطاة إلى منتصفها بالخشب، عارضة مختلف الرسوم، وكذلك السقف المزخرف. ووضعت يديها بعصبية على غطاء السرير المزدوج.

شعرت بالغثيان وهي تفكر في ما ينتظرها عند عودة نيكولو، حين ترفض مجاراته في رغباته. ونهضت من الفراش بضعف وهي تفكر في أنه قد يرفض ادعاءها التعب.

أثناء خطوبتهما القصيرة، كان يقصر رغباته على فرص قليلة كانا يخرجان فيها معاً وذلك اعتباراً لقيم جدها ورغبتها هي في اتباع السلوك الذي أنشئت عليه. أو على الأقل، هذا كان رأيها. أما الآن، فهي تفسر سكوته ذاك ابتعادها عنه، بمعنى مختلف.

بالنسبة لكل ما ادركته الآن، يمكنها أن تبتهج إذ لم تسمح لها أفكارها المثالية، بالوقوع في خطأ السماح له بأن يصبح عشيقها. كما أن رغبتها في أن تحافظ على كرامتها وشرفها وألا تدعه يؤثر على نفسها. هذه الرغبة لم تتغير.

وبيدين ترتجفان خلعت القرطين هدية نيكولو، ووضعتهما في علبتهما على طاولة الزينة قبل أن تخلع ثيابها كلياً وتدخل الحمام آخذة معها قميص نومها آملة أن

ينعشها «الدوش» الخفيف الذي ستأخذه. ولكن، خاب أملها وهي تلمس عدم جدواه.

وضعت عطورها المفضلة التي تلائم بشرتها العسلية اللون، في مياه الحوض وهي تغتسل ثم ارتدت أخيراً، قميص نومها الساتان الأزرق بعد أن سوّت ثنياته حول وركيها المستديرين برشاقة. لقد كانت، حين اشترته، تملؤها البهجة لتوقعها ارتداءه ليلة عرسها.

كانت غرفة نومها تنتظرها بصمت، وبنفس الصمت قصدت فراشها. وسحبت الغطاء لتظهر الملاءات الحريرية بألوانها الزرقاء الشاحبة والرمادية وكذلك اكياس الوسائد. ولكنها لم تكد تلحظ هذه الرفاهية وهي تريح جسدها المتعب بينها.

النوم، كانت تنشد النوم، الذي لم تستطع مقاومته. وقبل أن تمد يدها لتطفىء النور بجانب فراشها، كان آخر ما فكرت فيه هو أن نيكولو سيوقظها عند قدومه ليمارس معها حقوقه الزوجية التي يدعيها دون شك.

عندما استيقظت، كان ثمة ضوء خفيف. وللحظة، ظنت نفسها وحدها في السرير الواسع. ولما جلست في الفراش اكتشفت خطأ ظنها. كان بجانبها، بعيداً عنها مسافة تكفي شخصاً آخر، كان ثمة وجه نيكولو مطمئناً بين الوسائد المتعددة الألوان بينما كان جذعه العاري مكشوفاً تماماً. وقد استرخت عضلاته بتأثير النعاس، كل ذلك جعل أنفاس كاتيا تتوقف في بلعومها.

بينما أخذت تعجب لضبطه نفسه، هذه الليلة، عادت بها ذاكرتها إلى مقابلتها لسيزار برونيللي. لقد أفاد النوم

العميق جسمها وأعاد إليها حدة ذهنها. وعليها الآن أن تتابع التمثيلية التي أخذت على نفسها القيام بها.

وبحذر أنزلت ساقيها من السرير، ثم جمعت ثيابها وحملتها معها إلى الحمام. وأخذ منها غسل وجهها وأسنانها وارتداء سروال جينز وقميص، فقط عدة دقائق، لقد كانت بحاجة إلى بعض الوقت تقوم فيه بتنفيذ خطتها، ولهذا، أرادت أن تنفرد بنفسها.

من دون أن تزعج نيكولو، تركت الغرفة بخفة ونزلت إلى أسفل مجتازة قاعة الرقص الخالية، ثم خرجت من احد الأبواب الزجاجية إلى الحديقة. كانت في الليلة السابقة قد لاحظت بوابة حديدية تقود إلى مكان رسو الزوارق بجانب القصر. واستغرق منها ازاحة رتاج البوابة عدة ثوان لتجتاز، بعد ذلك، الجسر الحجري المزخرف الذي يعبر القناة الصغيرة.

لم يحدث حذاؤها الجلدي الخفيف أي صوت. وأسرعت نحو مفترق الطرق المتشابك الذي رأته اثناء رحلتها في اليوم السابق، والذي يقودها إلى ساحة سان ماركو، تاركة القناة الكبيرة خلفها، وعرفت بقدر ما ان تتذكر أين تكون الساحة، وبالنسبة إلى الجهة التي توجهت إليها، سيكون بإمكانها أن تعود فتقتفي آثار قدميها.

هامت في الشوارع الضيقة الخالية، باشاراتها الصفراء التي تعيّن الاتجاهات إلى ساحة سانت ماركو، أو إلى جسر ريالتو، واجتازت الساحة الصامتة حيث كان الحمام يسبح في برك من الماء تجمعت من القطرات النازلة من المضخات، لا تكاد تنتبه إلى الشرفات التي تتدلى منها

الأزهار أو الدوالي التي تغطي الجدران، كانت البندقية قد بدأت تستيقظ مستجيبة إلى فجر جديد. وكانت هي قادرة على أن تنفرد بنفسها لتستعرض ما عرفته في تلك الليلة.

اهتزت وهي تفكر في سيزار برونيللي ودوره في كل هذا... ما أشبهه بواحد من قوارض الطير يقف على السياج منتظراً الجيفة، ليتهافت عليه ليسمن. ولكن ليس عليها أن تحترم أو تحب برونيللي لكي تصدقه. ذلك أن عرضه كان واضحاً. إنه يريد أن يثير أكبر عدد من الفضائح لكي يكتب عنها، فليس له أية عداوة شخصية نحوها أو نحو نيكولو، كما أن ليس عنده ضمير يتحرك لنتيجة ما يقوم به.

وامتلأت عيناها بالدموع وتوقفت عندما وصلت إلى جسر ضيق يعبر قناة صغيرة، ونظرت إلى أعماق المياه التي ما زالت تعكس صور المنازل العالية على جانبيه، مما حول المياه إلى شبه مرآة داكنة وقد ابتدأت خيوط أشعة الشمس في اختراق ظلمتها. وكان هناك زورق صغير واقفاً لا يتحرك. وعلى مسافة منه أمكنها رؤية انعكاس كامل رائع في المياه للجسر الذي يليها، بينما يغرق عالمها هي في الحطام المحيط بها.

قبضت على حاجز الجسر بيديها بشدة، إن مصيرها بين يديها الآن، ولكنها يجب أن تكون فطنة. كانت تدرك أن المواجهة المباشرة لن تكون في مصلحتها. ولكن بطريقة أو بأخرى، يمكنها أن ترغم نيكولو على الاعتراف بغلطته التي ارتكبها، ومن ثم تقنعه بأن من الأفضل لهما معاً، أن يطلقها.

الفصل الرابع

ضائعة في أفكارها، استدارت كاتيا في طريق العودة لتتوه عن الطريق الصحيح. واقتضاها الأمر وقتاً جربت فيه مختلف الطرق قبل أن تكتشف الطريق المؤدي إلى القصر حيث وجدت نفسها وهي تعبر الجسر لتستقر فوق الأرض، وجدت نفسها أمام نيكولو الذي كانت الثورة تندلع من عينيه، قائلاً لها بصوت حاول أن يجعله هادئاً دون أن يتمكن من إخفاء الغضب الذي كان يتملكه. قال لها وهو يقبض على ذراعيها بخشونة: «أين كنت؟»

تسارعت دقات قلبها. لقد ابتدأ أخيراً، في الكشف عن وجهه الحقيقي ليبسط سلطته عليها. وفجأة، شعرت بالجفاف في فمها وهي تجيب: «كنت أتمشى.» وألقت نظرة، بهدوء مصطنع إلى اليدين اللتين تمنعانها من الحركة وما زالت خفقات قلبها تتسارع.

تابعت: «إنها ليست جريمة بالطبع. لقد استيقظت باكراً ولم أستطع متابعة الرقاد، فأردت أن أفعل شيئاً.»

قال: «ألم يخطر ببالك أنه لو كنت أيقظتني لوجدنا نحن الإثنان ما نفعله؟»

لم تخطىء هي فهم المعنى الذي يقصده والذي ظهر في لمعان عينيه.

كان الجواب البديهي لذلك هو أنها تركت المنزل لأنها كانت تعلم ما الذي كانا سيفعلانه لو أنها كانت قد أيقظته.

أجابت: «كان يبدو عليك الاستغراق في النوم فلم أحب أن أزعجك، كما أنه لم تكن لديّ فكرة عن الوقت الذي عدت فيه أمس إلى الفراش.»

قال بينما أهدابه السوداء تخفي نظراته الحادة: «بعد أن أوصلتك إلى الغرفة بقليل. هل هذه هي المسألة؟ هل لأنني لم أوقظك لأقوم بواجباتي كزوج؟ هل أشعرك هذا بالإهمال يا حبيبتي وحملك على الاعتقاد بأنني يجب أن أكفر عن خطأي بأن أضع في قلبي الخوف؟»

قالت متصنعة دهشة فضحها هدوء نظراتها: «الخوف؟ وماذا هناك ليدعوك إلى الخوف؟ إن البندقية هي من أكثر المدن أمناً.»

قال وهو يضغط بيديه على ذراعيها: «نعم. هذا ما نعتقد. ولكن الرجل الذي يصدم باختفاء عروسه، لا يمكننا أن نلومه إذا هو تصور الأسوأ.»

ضحكت غير مصدومة وهي تقول: «وهل اعتقدت أنني خطفت؟ كل ما أردت عمله هو أن أكتشف قلب البندقية.»

قال نيكولو بجفاء: «بينما عندي أنا شيء آخر لتكتشفيه. شيء يجب أن يجرى في شقتنا بمعزل عن الأعين الفضولية هنا عند مرسى الزوارق. هيا بنا.»

سارت كاتيا مستسلمة باتجاه مدخل الحديقة، إلى حيث تنتظرها مواجهة المعركة في شقتهما. كان على نيكولو أن يتعلم أنها ليست متاعاً تستعمل لإنجاح عمل الرجل أو تكون ستاراً لمواراة غرام غير مشروع. كان عليه أن يتعلم أن كرامة أسرة لورنزو تماثل ما عند أسرة كاشياتور، هذا وإن كان تعليمه كل ذلك لا يخلو من خطر.

www.elromancia.com

تمتمت لعدد من الخدم كانوا يقومون بتنظيف أرضية قاعة الرقص، تقول: «صباح الخير.» بينما كان هو ما زال قابضاً على ذراعها يقودها نحو السلم صاعداً بها إلى شقتهما.

قالت بيأس وهو يدفعها برفق لاجتياز العتبة: «نيكولو. أريد أن أتحدث إليك...»

قال: «وأنا أيضاً... ولكن ليس بمعدة فارغة.»

أمسك بالهاتف يأمر بإرسال الفطور إلى شقتهما، مشيراً إليها بعد ذلك بأن تذهب إلى غرفة الجلوس الرائعة لتأخذ قسطاً من الراحة.

هكذا، انحنى فوقها وهي جالسة في غرفة الجلوس ونظر في عينيها بثبات قائلاً: «من هو ذلك الرجل الذي كنت على موعد معه هذا الصباح؟»

احمر وجهها من الدهشة وهي تقول: «ماذا تقول؟» وتسارعت دقات قلبها بينما تحاول امتلاك نفسها. كيف يجرؤ على تحويل التهمة إليها محاولاً بذلك تغطية عتاب لا حق له فيه؟

قال معنفاً: «إنك لست صماء ولا جاهلة يا عزيزتي كاترينا. كما أنك لست حمقاء. كما أنه لا يبدو أنك تبادلينني نفس المجاملات. لقد بقيت معي لحظة واحدة، في الليلة الماضية لتختفي بعد ذلك. أتظنين أنني لم أبحث عنك؟ أو أنني لم أرك مستغرقة في الحديث مع صديقك؟»

دب في نفسها الخوف وهي تسأله: «هل رأيتني في الحديقة؟ ولكن، لم لم تأت إليّ؟»

رفع حاجبيه الاسودين قائلاً: «أتظنينني من الحماقة

بحيث أخلق مشهداً يؤثر على نجاحي العملي؟ لم أكن أعلم أنك تعرفين أحداً في البندقية. لو كان الاجتماع بريئاً لتوقعت منك أن تقدميني إلى مرافقك هذا. ولقد اعتبرت أنك كنت البارحة متعبة فلم أشأ سؤالك وتركت ذلك إلى أن تستيقظي مرتاحة في الصباح، فماذا وجدت؟ كان فراشك فارغاً دون أي ملحوظة تتركينها لي تدلني على مكانك.. ماذا غير ذلك عليّ أن أتوقع؟ ما دمت لم تتعرضي للاغتصاب فقد كنت دون شك على موعد.»

كاد الغضب يخنق أنفاس كاتيا. كيف يجرؤ على قلب الأشياء عليها؟ لقد سبق وأن ألقى عنه رداء التهذيب الذي ارتداه في انكلترا، ليبدي لونه الحقيقي كاشفاً عن نفسه كغريب وقح. وشكراً لما هيأها لمثل هذا التغيّر.

قالت وهي تنهض واقفة: «إنك متعجرف...» ولكنها ما لبثت أن عادت تجلس بعد أن سمعت قرعاً على الباب لتدخل خادمة شابة تدفع أمامها عربة عليها صينية الإفطار.

اخفاء لمظهرها الغاضب وارتجاف يديها، خفضت كاتيا نظراتها وشبكت يديها في حضنها وابتدأت تعد في ذهنها إلى العشرة.

قال نيكولو وهو يضع كوب قهوة على طاولة بجانبها دون انتظار جوابها: «القهوة.» وعندما انسحبت الخادمة تابع: «اتريدين كعكة؟ يمكنك غداً أن تختاري الفطور بنفسك، إذ لا أظنك عازمة إلى معاودة الخروج باكراً إلى موعدك ذاك. ماذا كنت تقولين؟» ورفع كوبه إلى فمه منتظراً جوابها.

فكرت هي أن هناك طريقاً واحداً لمواجهة النار، ألا وهي النار نفسها.

www.elromancia.com

أخذت نفساً عميقاً تهدىء بذلك أعصابها، ثم رفعت نظرها إليه بتحدٍ كمن يستعد للقتال: «إنني أفضل أن تعاملني بالرقة واللطف اللذين يتناسبان مع مركزي.»

نظر إليها بعينين ساخرتين قائلاً: «مركزك كزوجة لي؟ ولكنك حالياً، زوجة بالإسم فقط يا حلوتي. وتبعاً للمركز الذي تدعينه لنفسك في الدقائق التالية، ستكون معاملتي لك لطفاً وحرارة.»

تزايد خفقان قلبها وهي ترى في وجهه رغبة لا يمكن أن تتجاهلها. وحاولت أن تخفف من هلعها بقولها: «مركزي هو حفيدة ماركيز.» وتوقف قلبها عن الخفقان وهي ترى الصدمة في عينيه وتوتر فكه مما حقق لها ما كانت تريد معرفته.

انحنى نيكولو فوقها وقد توتر جسمه منذراً بالخطر وهو يقول: «إذن، فقد أخبرك انطونيو بذلك برغم كل شيء.»

على الرغم مما فعله جدها معها فقد شعرت بوجوب حمايته من غضب نيكولو، فاندفعت قائلة: «جدي؟ يا للسماء... ليس هو من أخبرني. لقد قرأت بعض الصحف التي وصلته من إيطاليا كانت ملقاة على مكتبه. وفكرت في أنه أكبر سناً من أن يهتم بمثل هذا اللقب. ولكنني لست كذلك.»

توقفت عن الكلام تجيل بأنظارها في أنحاء الغرفة الرائعة، ثم تابعت قائلة: «خاصة وأنا الآن سيدة هذا القصر. لقد كنت أحلم بكل المباهج التي سأستمتع بها وبكل الاستقبالات والحفلات التي سأقيمها لأناس في مثل سني... أعني ليس من أمثال الناس الذين كانوا هنا

البارحة...» وتلاشى صوتها في جو الغرفة الهادىء.

قال نيكولو أخيراً: «لقد فهمت. حسناً يا عزيزتي، آمل أن لا تكوني قد شعرت بخيبة الأمل. إنك تعرفين كما أعرف أنا أن إيطاليا هي جمهورية ولم يبق هناك أي اعتبار للألقاب. حتى ولو كان، فإنني لا أظن أن لقب ماركيز ينتقل إلى الحفيدة بالضرورة، فهذه الألقاب القديمة تميل إلى الانتقال إلى الذكور فقط. وهذا هو السبب كما أظن الذي منع جدك من أن يصارحك بهذا، لأنه اعتبر أن لا جدوى من إخبارك بهذا اللقب الذي لا يعني شيئاً.»

رسمت على شفتيها ابتسامة وهي تنظر إلى وجهه قائلة: «أتظن ذلك؟ لقد ظننت أن لقباً كهذا مهما كان هو شيء حسن إذا تصدر رسائل أية شركة طموح، خاصة تلك التي تصدّر إلى ما وراء البحار والجمهوريات التي ليس لها ملكيات خاصة... ولم يكن جدي يريد أن يزعج نفسه بشركات تريد أن تحقق ارباحاً من وراء مثل هذا.»

قال وقد ضاقت عيناه وبدا عليه نفاد الصبر: «إن عنده بالطبع أسبابه الخاصة ولم يشأ أن يشغلنا بمثل هذا الأمر. إنني متأكد من ذلك.»

ابتسمت في وجهه بلطف بينما تسارعت خفقات قلبها وهي تقول: «ولكنه أخبرك أنت بذلك. أو لعلك عرفت بذلك قبل أن تأتي إلى انكلترا لمتابعة أعمالك؟»

تصلب جسده بشكل مخيف وهو يقول: «ما هذا يا كاتيا؟ هل وصلنا إلى هذا الحد؟ هل تحاسبينني لأنني سبق وعلمت أن جدك ورث لقباً لم يعد له قيمة؟»

قالت وهي تأخذ آخر رشفة من كوبها ليمكنها تمالك

نفسها وتستمد القوة لمواجهته: «طبعاً لا.» لقد كان إذن واثقاً منها بحيث لم يكلف نفسه عناء التظاهر بالنزاهة.

مرة أخرى أحست بنفسها القوة، مع أن نيكولو ما زال واقفاً مشرفاً عليها بينما استدارت هي تنظر إلى القناة الكبيرة من النافذة التي كانت في التو قد زال عنها غشاء الضباب مع ارتفاع الشمس في قبة السماء. كان يمكن أن تشعر بخسارة أقل فيما لو كانت واجهته على نفس المستوى. ولكن، حتى أعلى كعب حذاء عندها ما كان ليمنحها مثل هذا الشعور بالمساواة.

قالت: «في الحقيقة إنني معجبة بعقلك الفريد في تتبع الفرص لتحسين صورة أعمالك بكل تلك الغيرة والحماس.» كانت عيناها لا تزالان مركزتين على الزورق المحمّل بسيّاح يابانيين كانوا يستمتعون بصحبة سائق الزورق الذي كان يعزف على الاكورديون رافعاً صوته بأغنية حب من البندقية، بينما كانت تحس بعيني نيكولو تخترقان رأسها من الخلف وتعكسان في سوادهما شيئاً هو غير الرضى، تبعاً للجو المشحون بينهما.

قال بلهجة أخافتها: «في الحقيقة، يبدو أننا نحن الإثنان لسنا غريبين عن الطموح، هذا إذا كنت ترين الزواج مجرد طريق إلى جدول لا ينتهي من الاستقبالات والحفلات، يا عزيزتي.»

استدارت تواجهه وهي ترسم على شفتيها ابتسامة مصطنعة لتقول: «أوه... والآن يا نيكولو... المساومة هي المساومة... إن زواجنا ليس الوحيد من نوعه الذي يتزوج فيه الفقير ذو اللقب من الغني الذي هو دون لقب.»

أمام الشرر الذي تصاعد من عينيه، تابعت بسرعة: «وإن هذا الأساس للزواج هو أكثر ثباتاً من أوهام الحب... ألا توافقني على هذا؟»

أخذت تراقب ملامحه وقد تصلبت، بينما انتظرت هي جوابه، راجية أن لا يعود من ناحية إلى تكرار القسم على حبه، ومن ناحية أخرى إلى ما تتوقعه من تحقق مخاوفها إلى الأسوأ.

عندما بدت على شفتي نيكولو ابتسامة قاسية، فارقها آخر أمل لها.

نظر هو إليها بعينين ضيقتين وهو يقول: «وهكذا لم تنخدعي أبداً بتأكيداتي القوية لحبي الذي لن ينتهي. لقد خاب أملي حقاً فقد كنت أظن نفسي أستاذاً في فن التودد.»

قالت تطمئنه بسرعة: «وإنك لكذلك فعلاً، فقد أثرت بي معاملتك كثيراً ولكنني لم أكد أصدقها خصوصاً عندما ارتبت في تصرفاتك منذ البداية. لقد كانت لعبة جيدة لعبناها معاً نستغفل بها جدي. ولكننا نحن الإثنان نعلم أن الحب من النظرة الأولى هو وهم المراهقة الذي ينتهي دوماً بالخذلان والتعاسة. ولكن الحقيقة في قضيتنا هي مختلفة تماماً. فقد وجدت أنت في كوني حفيدة ماركيز، طريقاً إلى التقدم مادياً، بينما وجدت أنا فيه طريقاً إلى الخلاص من حياة القرية ومن الوظيفة المملة ولأحصل على شيء من اللهو، واشتري الملابس الجميلة التي تناسب مركزي الجديد ويكون عندي الخدم... ولكن ليس ثمة حاجة بنا إلى التظاهر، ونحن بمفردنا بالاهتمام ببعضنا البعض، أليس كذلك؟»

«والآن، ليس علينا أبداً أن نراعي شعور جدك بعد الآن أليس ذلك ما تعنينه؟»

جاءها هذا السؤال بلطف من خلفها... كان من الرقة واللطف بحيث جمد الدم في عروقها. واغتصبت ابتسامة رسمتها على شفتيها الجافتين قائلة: «كنت أعرف أنك ستتفهم الأمر. كان يهمنا نحن الاثنين معاً أن أخدع جدي بأنني وقعت في حبك، وإلا لما وافق أبداً على زواجي منك. ولكنني أخشى أن لا أكون من المهارة في التمثيل بحيث أستمر في تمثيل هذا الدور ونحن بمفردنا. وإنني أتظاهر بذلك ما دمنا أمام الناس، ولكن عندما نكون على انفراد، يذهب كل منا لشأنه.»

قال متصنعاً الهدوء ليفضحه بريق عينيه السوداوين: «أتعلمين؟ انني عند ذلك ربما ظننت أحياناً أنك تبالغين في التظاهر يا حلوتي.»

قالت تعترض وقد كرهت الطريقة التهكمية التي خاطبها فيها بكلمة حلوتي: «كلا بالتأكيد. إنني أعرف أن عندك...» وتوقفت عن الحديث تستجمع شجاعتها حيث انه لم يحاول إيقافها عند حدها، لتستطرد قائلة: «عندك علاقة غير شرعية ما زالت قائمة.» وسكتت فجأة بجفاء.

اشتعلت عيناه وهو ينظر إليها بغضب هائل نضحت به كل خلية في جسمه وهو يقول برقة مخيفة: «ومن هو هذا الأحمق الذي أخبرك بكل هذا؟»

قالت: «بعض الأشخاص... رجل ما...» ولم تجرؤ على التفكير في النطق باسم سيزار برونيللي برغم ازدرائها له أنها في هذا الظرف لا بد أن تعرّضه إلى العقاب.

واستطردت: «إنه أحد ضيوف حفلة الليلة الماضية.»

قال: «وهل كان من الثرثرة بحيث ذكر اسم تلك الحبيبة؟»

نظرت إليه كاتيا في رعب وقد تجلى الغضب والقسوة على فمه المتوتر. ولكن لم يعد أمامها مجال للتراجع الآن، غير أن مشاعرها المتأججة في داخلها دفعتها إلى رؤية رد الفعل عنده عندما يعرف أن علاقته السرية غير الشرعية لم تعد سراً.

قال: «آه... لا بد أنه رفيقك في الحديقة، هو الذي أخبرك.»

لم تغفل أذناها رنة الاستهزاء في صوته. وقالت: «لقد قال إن ذلك قد أصبح حديث الناس.» وهزت كتفيها وهي تتابع: «جينا كابريني... أظن هذا هو اسمها. هل كانت في الحفلة الليلة الماضية يا نيكولو؟ كنت أحب لو قابلتها. إنني أعرف أنك واياها صديقان حميمان.»

قال: «إنك إذن تعرفين ذلك؟»

كان بجانبها في خطوتين يمسك بكتفيها ويجذب جسمها نحوه متابعاً: «لقد عرفت جينا منذ كنا مراهقين، وهي متزوجة الآن من أخلص شركائي.»

رفعت حاجبيها تسأله: «تعني منفصلة بالتأكيد؟ هذا إذا كانت معلوماتي صحيحة.»

«كفى ثرثرة!»

ماتت الكلمات على شفتيها حين انحنى رأس نيكولو وهو يلثمها مستغلاً آهة الدهشة التي أطلقتها.

رفعت يديها بحركة آلية إلى كتفيه تحمي نفسها من هذا الهجوم.

قال: «لا حاجة بك إلى الغيرة من جينا.»

كان الخطر يبدو في كل مقطع من كلماته العذبة التي كان يهمس بها بينما أنفاسه الدافئة تلفح أذنها. واستطرد قائلاً: «لو لم تكوني نائمة عندما جئت إلى الفراش لكنت أعطيتك كل برهان أردته. مهما كانت أسباب زواجنا فإنني مصمم على جعله حقيقياً بكل معنى الكلمة.»

«كلا...» قالت ذلك بآهة احتجاج منكرة عليه تغيير الموضوع لإخماد مخاوفها مستعملاً في سبيل ذلك مهارته الجسدية المتسلطة. إنها لا تريد أن يتلاشى غضبها بالسحر الذي يسلطه عليها.

أخذت تدفع عن نفسها جاهدة في التنبه من شبه النعاس الذي اجتاح كيانها. والذي يهددها بغزو روحها كما يغزو جسدها. كلا، ليس هذا ما تريده.. ليس هذا حباً حقيقياً... إنها محاولة من نيكولو ليبسط سلطته عليها ليعاقبها لكشفها خيانته. ليربطها إلى سحر جسده الآسر... للمصير الذي خططه لها. إنها حركة يتوجب عليها إحباطها إذا كانت تريد أن تستبقي ولو الرواسب من استقامتها ونزاهتها الأصيلة.

«كفى» وبصرخة قصيرة سحبت نفسها من بين ذراعيه، مسرعة نحو الباب لتفتحه وتركض في الممر، آملة في الخلاص منه. إنها تريد أن تتوه مرة أخرى، في شوارع المدينة الضيقة ريثما تستعيد حواسها وتهدىء من مشاعرها ليمكنها ذلك من مواجهته مرة أخرى مسلحة تجاه أي تقارب جسدي يتطلبه منها.

دون أن تنظر خلفها، خرجت من الباب المؤدي إلى الشارع، حيث أخذت تركض من شارع إلى آخر بسرعة، إلى

أن سمحت لنفسها بالوقوف لتسترد أنفاسها اللاهثة بينما كانت ضربات قلبها تتسارع من القلق. واستندت إلى الجدار للحظة، أخذت بعدها تنظر إلى ما حولها بحذر لترى الطريق الذي جاءت منه.

كان نيكولو قد تبعها. وكانت الشوارع مأهولة بالمارة إذ ان البندقية كانت الحرارة تدب فيها منذ الصباح الباكر تحيي نهاراً جديداً. واستطاعت كاتيا أن ترى رأس زوجها المنتقم على بعد أمتار قليلة منها، وكان اقترابه منها يزداد بسرعة لا تدعو إلى تفاؤلها. ولم يكن هو مسرعاً، ولكن خطواته الواسعة هي التي كانت تقصر المسافة بينهما.

لم يكن ثمة مهرب من أن يلحق بها إلا إذا استجمعت أفكارها لتضع خطة تسير على هديها. ودفعها الهلع إلى زيادة سرعتها مجتازة الشوارع والأزقة، صاعدة فوق الجسور دون معرفة بالاتجاهات وليس في ذهنها إلا شيء واحد وهو أن نيكولو ما زال في أثرها إلى أن أثار ذعرها أن وجدت نفسها قد وصلت إلى نهاية الطريق.

كانت تجري أمامها قناة صغيرة على جانبها طريق ضيق ينتهي فجأة حيث جدران البنايات القريبة تغطس فجأة في المياه الساكنة.

تساءلت، ما الذي بإمكانها عمله الآن؟ وكان خلفها الزقاق الذي كانت قد اجتازته مسافة عدة أمتار قبل أن تأمل في إمكانية العثور على منعطف تخرج منه. وكان هناك احتمال في أن تركض مباشرة لتجد نفسها بين ذراعي نيكولو. وهذه المنطقة من المدينة كانت معزولة. فإذا كان

www.elromancia.com

طبعه يماثل سرعته الحيوانية، فهو قد يفتك بها ملقياً بجثتها في القناة دون أن يشاهده أحد.

ثم رأته، كان زورقاً راسياً بجانب درج هناك. كان داخله مغطى بعناية بغطاء أحمر كبير. فإذا هي استطاعت الاختباء داخله، فإن نيكولو سيظن أنها انعطفت في طريق ما قبل أن تصل إلى نهاية الطريق. ولكن، تبعاً لمعرفته بالمدينة لا بد له من أن يفتش هنا أولاً.

نزلت، دون تردد إلى الزورق، رافعة الغطاء دون أية مشقة لتعيد جره فوق جسمها المرتجف مبقية فتحة صغيرة تتأكد منها ما إذا كان لمخاوفها أساس.

كان لمخاوفها أساس. إذ بعد لحظات قليلة من استقرارها التقطت أذناها المرهفتان صوت خطوات تقترب.

توقفت الخطوات، ورأت من مكمنها الحذاء الرمادي الذي كان ينتعله نيكولو وكذلك سرواله الفضي. حتى أنها استطاعت أن تسمع صوت أنفاسه المتلاحقة، أو ربما صدى أنفاسها هي في مكانها الذي يعلوه الغبار.

وقف هو دون حراك فترة خالتها دهراً، قبل أن يستدير عائداً من حيث أتى. هل خدعته حقاً؟ وبقيت في مكمنها قرابة العشر دقائق قبل أن تغامر بالخروج. هذا وما زالت خائفة من أن يكون كامناً ينتظرها. ولكن الأزقة المحيطة كانت خالية. ووقفت، وهي لا تستطيع تصديق حظها الحسن، وقفت تتدبّر الاتجاه الذي ستسلكه. وعندما التحقت بالمارة عرفت أنها قريبة من جسر «الريالتو.»

كانت في حاجة إلى وقت تفكر فيه دون أي شعور بالخوف من ان نيكولو يتبعها ويحصي عليها أنفاسها. لو

أنها فقط تستطيع إخفاء شعرها الذهبي وتغيير ثيابها ثم تختلط بالسيّاح الذين يتكاثر عددهم على الدوام.

كانت «بسطات» البضائع المنتشرة قرب جسر الريالتو، هي التي أوحت إليها بالفكرة. فدست يدها في جيبها تخرج بضعة جنيهات كانت تنوي أن تبدلها بليرات إيطالية.

بعد عدة دقائق فقط، كانت تشتري قميصاً مطبوعاً على صدره عبارة (أحب البندقية) وقبعة رياضية من القش بشريط أحمر، ولتغيير ثيابها، دخلت حانوتاً صغيراً، واشترت أيضاً سروالاً قصيراً قرمزي اللون، ثم استبدلت ثيابها جميعاً في ذلك الحانوت.

لن يعرفها نيكولو أبداً الآن، وشعرها مرفوع تحت القبعة وساقاها الطويلتان مكشوفتان في السروال القصير. بينما نقوش القميص تغطي صدرها. لقد بدت في هذه الملابس سائحة نموذجية، مثال المرأة التي كان نيكولو يحتقرها لو رآها حيث أن ملابسها غير المناسبة تسيء لكرامة البندقية. ولكن شوارع الريالتو كانت ضيقة، وكان تنكرها مقبولاً في ساحة سان ماركو الفسيحة.

باتباعها الإرشادات الواضحة الموضوعة لإرشاد السيّاح، وصلت بعد ربع ساعة إلى هدفها. إذ ظهرت ساحة سان ماركو للرائي من القناة الكبيرة بكل روعتها وتأثيرها في النفس، فهي تظهر عند ذاك في نهاية بياتزا. وكان المنظر رائعاً بعقودها الكبيرة وأقبيتها وأبراجها التي تتألق في ضوء الشمس بلونيها الأبيض والذهبي.

أمام هذا المنظر، احتلت متاعب كاتيا المكان الثاني من الأهمية بعد الابتهاج والسعادة اللتين داخلتاها أمام هذا

المنظر. كان هذا موطن أبيها... وقسم من ميراثها ولا يمكن لشيء أن ينقص من بهجتها به. وقبل أن تتحول إلى منتصف الساحة وقفت فترة أمام حوانيت المجوهرات الغالية مأخوذة بدقة وروعة المعروضات.

كانت أفواج السيّاح في منتصف الساحة، يطعمون الحمائم. واقتربت من «الكاتدرائية» نفسها لتقف وتتفرج على زخارفها الرائعة. وقبل أن تعرف ما سيحصل، وجدت نفسها محاطة بمجموعة من السياج الذين لا بد أنهم دخلوا «الساحة» من جهة القناة الكبيرة.

علا صوت امرأة خلفها تخاطب ذلك الجمهور الصغير بصوت مدوٍ وبانكليزية ممتازة: «إن كنيسة سان ماركو المعروفة أيضاً باسم «البازيليكا» الذهبية مثال آخر رائع يعلمنا لماذا أطلق على هذه المدينة لقب «المدينة الآمنة» وإنما تشير إلى «السيدة الذهبية» وقد انشأت في العصور الوسطى عندما...»

كانت كاتيا مصغية بكل حواسها عندما جاءها صوت رجل من خلفها يقول: «ها... إنني لم أرك في السفينة من قبل.» واستدارت هي قليلاً لتجد نفسها أمام شاب في مثل سنها.

قالت متلعثمة وهي ترى الفائدة التي تجنيها من كونها واحدة من هذه المجموعة: «كلا... حسناً... أعني إنها سفنية كبيرة، أليس كذلك؟» وابتدأ عرض آخر ذو أهمية ليتجمع عدد من الناس حول الدليل.

أجاب الشاب وهو يشملها بنظرة متفحصة: «نعم، بالتأكيد، إنني أعرفك ولكنني مللت من هذه الشروح

الحضارية التي لا تنتهي. إن باستطاعتي الاطلاع على كل هذا من الدليل السياحي لو شئت، ولكنني في غاية الشوق إلى كأس من الجعة. ما قولك في الذهاب والتفتيش عن حانة أو مقهى نجلس فيه؟»

حنت كاتيا رأسها موافقة وهي تقول: «لا بأس.» وألقت نظرة شاملة إلى ما حولها دون أن ترى أثراً للنيكولو. ولكن، لا بأس من أن ترافق شخصاً ما لبعض الوقت وعلى كل حال، فقد أصاب التوتر الذي مرّ عليها، فمها وحلقها بجفاف مزعج.

قال: «من هذا الطريق إذن.» وأحاط خصرها بذراعه بنوع من الإلفة، ثم قادها نحو القناة الكبيرة وهو يقول: «لقد سبق وعاينت صف الحانات بأكمله هنا. ويمكننا أن نجلس ونتناول الشراب ونتفرج على المارة، ثم نتكلم عن بعضنا البعض.»

«لِمَ لا؟» قالت كاتيا هذا ممتثلة إلى إشارته بالجلوس وهي تشعر بالنشاط والسرور للجلوس على كرسي هزاز مريح تحت مظلة حمراء بينما كان مرافقها يطلب لنفسه كأس جعة وزجاجة كوكا كولا لها.

كان المنظر أمامهما رائعاً. كانت تعبر أمامهما حافلات البندقية المائية نحو الجهات الأخرى من القناة الكبيرة التي تتوسط المدينة بينما الزوارق الصغيرة تتحرك جيئة وذهاباً في الشوارع المائية الضيقة. وعلى طول الرصيف الذي يفصل الحانة عن القناة، كانت مجموعات من المارة لا تنتهي، يسيرون ضاحكين معجبين يقفون هنا وهناك يشترون الهدايا والتذكارات من على العربات التي تعرضها.

www.elromancia.com

وفكرت كاتيا في أن هذا هو أفضل مكان يمكنها أن ترتاح فيه حيث لا يمكن لنيكولو أن يجدها مهما حاول.

«أظن يا عزيزتي أنه ربما بعد أن استمتعت بالانطلاق والمرح لمدة طويلة، ربما قد حان الوقت لأعيدك إلى القصر. أليس كذلك؟»

لم تكن كاتيا لتخطىء في صوت أو شخصية ذلك الذي ألقى إليها هذا السؤال الرقيق.

تمتمت: «نيكولو.» بينما تقدم هو من خلفها، ماراً بين الموائد ليضع يده على كتفها.

هب رفيق كاتيا واقفاً على قدميه قائلاً: «انتظر لحظة. إن هذه السيدة هي برفقتي ونحن ركاب سفينة واحدة. لماذا لا تبتعد من هنا لتجرب حظك في مكان آخر؟»

قال نيكولو بلهجة تنذر بالسوء: «ما اسمك؟» وكانت كاتيا تحاول عبثاً لفت نظر مرافقها إلى أن يتوقف عن ادعائه بما لا يمكنه اثباته.

أجاب مرافقها: «اسمي سيترمان غوردون شيرمان إذا كان هذا يهمك.» ولما كانت لا تنقصه الشجاعة بعد أن أخذ جرعة كبيرة من الجعة قبل أن يقف، تابع قائلاً: «وأنا أنصحك...»

قاطعه نيكولو: «وأنا أنصحك أن تبقى صامتاً.»

لم يكن المعنى الذي يبطن لهجة نيكولو الباردة بالتي يخطئها السامع، وهو يستطرد قائلاً: «إن رفيقتك في السفينة، كما تزعم هي زوجتي. وأنت الآن تقطع علينا شهر العسل.»

وقفت كاتيا على قدميها شاعرة بالغثيان من الخوف

وهي تقول: «نيكولو... أرجوك، لقد وقع السيد شيرمان في غلطة طبيعية حيث انني لم أوضح له الأمر.» ونظرت إلى وجهه الصارم بضراعة، راجية عبثاً أن تكتشف فيه لمحة من الرحمة، وقالت وهي تشعر بالتعاسة: «لقد كنت ظمأى، ولما عرض علي أن يشتري لي زجاجة كوكا كولا...» وخفضت نظرها إلى كأسها الذي كان ما يزال ممتلئاً.

رفع نيكولو حاجبيه قائلاً بازدراء: «اسمح لي أن أعيد إليك ما دفعت. كم تريد؟» وبدا الفتى الانكليزي متلاشياً كسمكة علقت بصنارة وهو يقول متلعثماً: «لم يكن لديّ أية فكرة... ظننت... إنها لم تقل أي شيء...»

هز نيكولو كتفيه العريضتين وهو يقول: «حسناً، السكوت من ذهب كما يقال.» ووضع يده في جيبه قائلاً: «خذ هذا... إنه يكفي ما دفعت وما تحملت من ضيق.»

وضع الشاب النقود في جيبه دون أن ينظر إليها وهو يقول: «هذا حسن إنني آسف لسوء التفاهم هذا...» وجرع بقية كأسه ثم شمل كاتيا بنظرة ألم ليترك بعدها الحانة حانياً ظهره وواضعاً يديه في جيبي سرواله.

فكرت كاتيا، يا للسماء، ما الذي سيحدث الآن؟ وتوقعت من نظراته التي كانت تتأملها، بعض الشفقة. هل تراه يفكر في جرها في شوارع البندقية عائداً بها إلى القصر؟ وعضت على شفتها شاعرة بالعذاب، وإذا هو فعل ذلك، ماذا سيفعل بها عندما ينفرد بها في ذلك السجن؟

www.elromancia.com

الفصل الخامس

«تفضلي بالجلوس يا ماركيزة.» قال نيكولو ذلك بلهجة بالغة البشاشة وهو يقدم إليها كرسياً غاصت هي فيه مرة أخرى. وتابع قائلاً: «يبدو أنك تريدين أن تكملي شرابك...»

بعثت الطريقة التهكمية التي لفظ فيها اللقب الذي سبق وازدراه من قبل، الاحمرار إلى وجنتيها، ولكنها أطاعته ليس فقط لحاجتها إلى شراب بارد، بل لأن جلوسها معه في مكان عام يمنحها الفرصة لتبادل أحاديث مهذبة معه.

أشار نيكولو بيده نحو النادل الذي كان يحوم حولهما، طالباً قهوة سوداء له، ثم جلس على كرسي قبالتها. متكئاً بظهره إلى مسند الكرسي، دافعاً ساقيه تحت الطاولة وهو يسدد إليها نظرات غامضة وقد ضاقت عيناه: «حسناً يا ملاكي... لقد جررتني إلى مطاردة عنيفة...»

قالت بجفاء: «وكيف أمكنك العثور عليّ؟»

أطلق ضحكة انتصار وهو يقول مسروراً: «العثور عليك؟ ولكنني لم أفقدك أبداً. ولكن الصياد الحاذق لا يلحق بفريسته إلى مكمنها. علاوة على ذلك، فإنني شخصياً لا أحب أن أتنشق نسيم الصباح العليل في أقل الأمكنة نظافة في البندقية وهذا طبعاً هو رأينا نحن الاثنين وهذا ما منعني من محاولة إخراجك بالقوة من مكمنك في ذلك الزورق.»

نظرت هي إلى ملامحه الضاحكة وهي تشعر بالذل

والإحراج. لقد بقيت عشر دقائق مختبئة في ذلك السجن الخانق بينما كان هو يعلم أنها هناك. لا بد أنه قد اختبأ بعد ذلك في مكان يشرف منه عليها، إلى أن تركت هي الزورق وابتعدت فلحق هو بها مرة أخرى. وقالت له بتوتر: «يدهشني أنك لم تقبض عليّ قبل الآن؟» وابتسم بينما بقيت عيناه ترقبانها بجد وهو يقول: «أتريدينني أن أفسد هذه الفرصة المسلية؟ كذلك، يجب أن أقول إنك عندما خرجت من ذلك الحانوت الذي غيّرت فيه ملابسك، كنت تبدين كلعبة كرتونية مشابهة لبعض السائحات المضحكات. ولقد احتجت إلى مقدار كبير من ضبط النفس لكي لا أقبض عليك هناك وأخرجك من بين الناس.» ورمقها بنظرة اشمئزاز متابعاً قوله: «لا يمكنني أن أخلع عنك هذه الثياب المضحكة الآن، وإلا أحدثت ضجة في المكان، كما أنني أكشف للناس ما أحب أن أراه وحدي. ولكنني أريد أن تقدمي لي معروفاً وذلك بخلع تلك القبعة المضحكة.»

فكرت هي في أن كل ذلك الجهد وكل ذلك العذاب الذي عانته كان عبثاً، حيث كان هو طيلة الوقت يراقبها ملاعباً إياها كما يلاعب الصياد السمكة، واثقاً من أنه يمكنه أن يقبض عليها في أي وقت وأي مكان.

قالت له ببرود: «وكنت أنت تستمتع بذلك.» وأرادت ممازحته وذلك بالامتثال إلى ما طلبه منها، فخلعت قبعتها تاركة شعرها طليقاً حول وجهها.

أومأ برأسه قائلاً: «عندما تقررين اتخاذ صديق، عند ذاك أعرف أنا أن الوقت قد حان لأن أتدخل.» وبدت في عينيه نظرة خطرة وهو يراقبها من وراء كوب القهوة، ثم استطرد

قائلاً: «إنها ليست الطريقة التي كنت أشتهي أن نبدأ بها حياتنا الزوجية. ولكنها لم تكن بدون فائدة كلياً، ذلك أن الدم يتدفق في عروق الصياد عندما تأتي الفرصة، ومن ثم يقبض على الطريدة.»

لم تكن هذه هي الكلمات التي أرادت كاتيا سماعها، ولا هي تعبيرات نيكولو الرقيق الوسيم ذي الوجه الباعث على الاطمئنان. وسرت في جسدها قشعريرة لدى إدراكها هذا. واعترفت لنفسها بأنها، على الرغم من كل ما عرفته، فهي لم تحاول أن تفرض عليه رغباتها. بإمكانها أن تحارب ضعف هذا الخائن عندما تستطيع أن تكون بعيدة عنه. ولكن، كيف لها أن تقاوم إغواءه الخدّاع بينما هي تشتهيه جسدياً؟ إن رجاءها الوحيد الآن هو في أن تحاول ستر ضعفها بمهاجمته شفهياً.

قالت وهي ترفع حاجبيها: «إنني أعجب لمعرفتك بكل شيء عن الصيد، بينما أنت سليل أسرة من الفلاحين؟»

قال: «ها.. أظن هذه من المعلومات التي أدلى بها إليك رفيق الليل ذاك. أشكرك لهذه الملاحظة أنت أيضاً. وهذا معناه أنني لم أعد لائقاً بحفيدة ماركيز على كل حال، أليس كذلك يا كاتيا؟»

كان في السؤال مرارة خفية وهو يتابع: «لقد كنت متواضعة عندما قبلت الزواج من رجل من العوام، لتكتشفي بعد ذلك انه ثري. ولكنك الآن، وبعد أن اكتشفت أنه سليل الفلاحين، تريدين الانسحاب من هذه المساومة.»

أطلق ضحكة قصيرة ساخرة وهو يقول: «حسناً، أخشى أن اكتشافك هذا قد جاء متأخراً. ولكن، إذا كنت تفكرين في

تجربة الطبيعة الارستقراطية التي ادعاها الارستقراطيون القدماء، فإنني أحب أن أذكرك بأن حق الملاكين الأثرياء بأن يطلقوا كلابهم في أثر فلاح فقير كل ذنبه أنه تجاوز حدود أرض ذلك الغني لكي يلتقط شيئاً من الفاكهة المتساقطة تحت الأشجار، هذا الحق لم يعد موجوداً في أيامنا هذه.»

«كلاب؟» وبنظرة واحدة إلى ملامح وجهه المتأملة المنفعلة، علمت أن نيكولو إنما يردد كلمات مدروسة. وتصاعد التشاؤم في نفسها وهي تسأله: «هل حدث أن أطلق أحد كلابه عليك؟»

أطلق ضحكة خشنة قائلاً: «ليس عليّ وإنما على أبي. كان في الثانية عشرة من عمره في ذلك الحين. ولو لم يتدخل صديق له، لكانت الكلاب قطعت عنقه.»

هتفت: «ولكن، هذا مريع...» وتفجرت في كلماتها هذه كل شخصيتها الانسانية التي كانت تسترها خلف قناع من اللامبالاة التي تتبعها.

فقال: «نعم.. أليس كذلك؟ ولكن لا تدعي هذا الأمر يسبب لك إزعاجاً، يا ماركيزة، إذ أن أياً منا لم يكن له يد في اختيار أسلافه.»

مضت لحظات قبل أن تدرك ما يشير إليه. فقالت بذعر: «أتقصد أن من أطلق الكلاب على أبيك هو أحد أجدادي؟»

قال: «إنه ليوبولدو غيدو لورنزو، ماركيز دي كاستيلو.» ودفع كرسيه إلى الخلف وسحب قدميه من تحت الطاولة ثم وضع قبضة من الليرات على الطاولة دون أن يعدها وهو يقول: «هل نذهب يا كاتيا لنقوّم كل هذه الأخطاء؟»

www.elromancia.com

قالت كاتيا: «أرجوك يا نيكولو...»

تجلى اليأس في عينيها الزرقاوين وهي تحاول قراءة تعبيرات وجهه الوسيم المكفهر. هل يكون هذا هو السبب الثالث، وربما الأهم، الذي جعله يصطادها في انكلترا بعد أن علم بوجودها؟ وحاولت عبثاً أن ترطب شفتيها الجافتين بلسانها. إن ذلك مريع حقاً، ولا يمكن أن تسمح به العدالة إذا كان قصد نيكولو من الزواج منها هو قهرها وإذلالها كما سبق وأذاق الماركيز الكبير رعيته التي كانت تعمل في أرضه نفس الشيء؟

أزاحت خصلة من الشعر من فوق جبينها وهي تفكر... كلا... لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً... إنه كابوس حقاً... ولكنه يوضح كل شيء. ثلاثة أسباب يكفي واحد منها ليبحر نيكولو لأجله من إيطاليا إلى انكلترا، فكيف بها مجتمعة؟

قالت له ببرود: «هل تريد أن تقول إن ثمة ثأراً بين أسرتينا؟»

أجاب: «لم يعد هذا وارداً، يا حبيبتي.» ولكن جوابه الرقيق لم يفلح في إيقاف ضربات قلبها بينما التوت شفتاه بابتسامة بطيئة وهو يقول: «إرتاحي يا كاتيا. لا يوجد ثمة كلاب في القصر. وسيبقى عنقك الجميل بأمان في حمايتي.» وامتدت يده الدافئة تلامس عنقها بخفة جناح الفراشة. وتابع قائلاً: «لقد عقدنا أنا وأنت صفقة ومهما كانت بواعثنا، فهناك طرق للخلاص من الكراهية الماضية أكثر بهجة. تعالي، إن صبري كاد ينفد نتيجة احجامك عن الوفاء بعهودك الزوجية.»

وضعت يدها في يده الممدودة طلباً للتعاهد إذ لم يكن

أمامها مجال للاختيار. إنها لن تستطيع الهرب منه إلى الأبد. وعلى الرغم من أنه لم يترك لها مجالاً للشك في قصده المباشر فقد كانت مفعمة بالأمل في أن تتبخر معظم رغبته في عقابها، وذلك بعد أن يجتازا شوارع البندقية الحارة. إنما على الأقل يكفيها أن تستطيع إقناعه بالعدول عن ذلك بإظهارها تبلد المشاعر نحوه.

«نيكولو!...» أفلتت هذه الكلمة من خلال شرودها. صرخت محتجة إذ جذب يدها فجأة لتجد نفسها بين ذراعيه. كانت ذراعه تحيط بوسطها بينما ذراعه الأخرى تحت ركبتيها.

صرخت: «ما الذي تفعله؟» وأجاب هو: «آخذك إلى البيت طبعاً... ماذا غير ذلك؟» وأوسع الخطى بحمله نحو الشمس الساطعة. وكان المشاة، بينهما وبين القناة الكبيرة، يفسحون لهما المجال للمرور. وهو يقول لها: «هل ظننت بأنني سأسير في الشوارع بصحبة «خيال المزروعات؟» حالما رأيتك مستقرة في الحانة، اتصلت هاتفياً بالقصر وطلبت من جوفاني أن يوافينا بالمركب.

بابتسامة ارتياح، أنزلها إلى مرسى صغير حيث سلمها إلى سائق المركب المنتظر. وصرّت كاتيا على أسنانها محرجة من العيون التي تنظر إليهما. ولكنها بقيت صامتة. وحدثت نفسها، حسناً، فليبتسم نيكولو ابتسامة الفوز... وشعرت بالمرارة بينما كان المركب يبتعد ببطء. إن ما كانت تظنه تصرفاً كريماً منه إذ سمح لها بالجلوس وإكمال شرابها، لم يكن إلا انتظاراً منه لوصول المركب ليأخذهما. إنها شاكرة، على الأقل، كون السرعة في القناة محدودة

www.elromancia.com

وهذا يمنحها فرصة إضافية للتفكير في خطواتها المقبلة تبعاً لخطتها.

حتى مع هذا، فقد كانت الرحلة أقصر كثيراً مما كانت ترجو.

قال لها وهو يقودها في الممر نحو شقتهما في القصر: «هل يجب عليّ أن أقفل الباب عليك أم أنك تعبت من لعبة «الاختباء والتفتيش؟»

ردت عليه بحدة: «إنها ليست لعبة. لكل واحد منا، نحن الإثنين أسبابه الخاصة التي دفعته للزواج من الآخر. وما دام الحب لم يكن من بين هذه الأسباب، فلماذا الإدعاء بوجوده؟»

أجاب مفكراً بفتور: «ومن ذكر الحب؟ إن لك وجه ملاك يا كاتيا وجسداً يمكن أن يجذب أي رجل أحمر الدم، كما يقولون، وكما سبق واكتشفت أنت، فإن دمي هو أحمر وليس أزرق كدماء النبلاء. لقد عقدنا في ما بيننا صفقة ضمنية أليس كذلك، ليساعدنا هذا على تحقيق رغباتنا المتضادة. إنني أزودك بفوائد مادية تلائم قلبك الصغير المأجور، وبالمقابل تمنحينني أنت الفوائد التي يوفرها وجودك في منزلي.» وتوقف لحظة قبل أن يضيف: «وإحدى هذه الفوائد هي الإستمتاع بجسدك عندما أشعر بالحاجة إلى ذلك.»

ردت عليه متألمة من تحليله البارد لعلاقتهما، قائلة: «وماذا عن جينا الخائفة الغاضبة؟»

أجاب وعيناه تلمعان بعجرفة: «ليس لجينا دخل في أموري الخاصة. وليس لك أن تظني ذلك أبداً وإلا ستندمين. وإزاء إحجامك عن تنفيذ دورك في الصفقة المعقودة بيننا،

فإنني أنصحك بأن تتذكري بأن جدك رجل عجوز وأن ردة فعله ستكون عنيفة في ما لو عرف أنك تزوجتني لغاية هي غير الحب. وأنا متأكد من أنك لا تودين له مزيداً من العذاب مهما كان شعورك بالخيبة.»

حبست كاتيا أنفاسها، غير قادرة على إخماد القلق الشديد الذي شعرت به إزاء ما كان واضحاً أنه تهديد مبطن. (مزيداً من العذاب؟) وما هو العذاب السابق الذي يعني أن جدها الحبيب قد عاناه على يد هذا الفلاح الوقح؟

هزت كتفيها وهي تخفي ألمها وقد داخلها خوف يائس من أنها تحارب في معركة خاسرة، ولكنها مصممة على أن تحارب حتى النهاية المرة.

قالت: «إذا كنت تريد التنويع في العمليات الحميمة، فأنا متأكدة من أن هناك كثيرات يرغبن في أن يؤمنّ لك هذا.»

أنهت حديثها بأن أدارت له ظهرها بنفور.

قال بصوته العميق: «بالطبع، ولكنني مللت النساء الراغبات المشتاقات. أتعرفين يا كاتيا بأنني لم أعرف في حياتي فتاة عذراء؟ وانني بشوق إلى ذلك؟»

استدارت وقد ضاق صدرها من الخوف وقالت بصوت متلعثم وهي ترى التصميم على ملامحه القاسية: «ماذا؟» فتابع كلامه بقسوة: «وأنت عذراء، أليس كذلك يا كاتيا؟ لقد أكد لي جدك هذا. ولا أظنه كذب عليّ.»

قالت محتجة بضراوة وهي تشعر بالشبكة تضيق من حولها: «ليس له الحق في أن يؤكد لك أي شيء من هذا النوع.»

لم يكن هناك مهرب، فذلك الرجل المتسلط الذي ظنت يوماً

أنها تحبه، لن يسمح لها بأن تبقى على استقلالها. إنه يريد منها كل شيء. إنه لا يرضيه أن يتباهى بها كزوجة أمام الناس ليحسن من صورته ويخفي خيانته. فهو يريد أن يذلها في ما بينه وبينها انتقاماً من أسلافها. وليس بإمكانها هي أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص.

جاءها صوته يخترق مشاعرها التي يغلفها الألم، قائلاً: «ربما ليس له الحق، كما تقولين، ولكنه أراد أن يتأكد من اني لا أسبب لك ضرراً لجهلي ببراءتك. وأنا لن أسبب لك الضرر إذا كان هذا هو سبب خوفك. أو أنك ستخبرينني أن جدك كان يتصرف عن سوء فهم؟»

سألته من بين أسنانها: «وهل هناك أي فرق؟»

هز رأسه قائلاً: «كلا. كوني واثقة من أنني عاشق عملي متفهم لا أهتم بتجارب رفيقتي، ولهذا سأخفي خيبتي إذا أنا اكتشفت أنك كنت تكذبين عليّ. كما أنني أعدك بأن لا أطالبك بتعويض في ما لو اكتشفت خداعك. فهل لنا أن نترك كل هذا التردد والإشمئزاز؟»

عندما أدارت له ظهرها، لم ينتظر جوابها بل أمسك بأطراف قميصها وخلعه عنها رامياً إياه بعيداً على الأرض. وتوهج وجه كاتيا من الخجل والإحراج. كيف يعاملها بمثل هذه الطريقة المذلة وكأن لا كرامة لها؟ كيف يبدأ الحب معها بمثل هذه الخشونة وعدم الاكتراث؟

قالت بيأس وهي تدخل أصابعها في شعرها المتناثر حول وجهها: «ليس هذا ما أردت...»

قال وهو يمعن النظر في وجهها: «ما الذي تريدينه إذن؟ أن أفتش عن الرجل الذي كان معك في الحديقة تلك الليلة؟ أو

الرجل الذي كان معك هذا الصباح ثم أدعوه إلى المبارزة؟ إنني لن أقبل منك أي نوع من الحماقات بعد الآن... صدقيني، إنني سأقبل المبارزة بكل سرور، ولكن المبارزة ليست من طباعي إذ انني قد أخسر. أم أنك تفضلين أن تكوني أرملتي على أن تكوني زوجتي؟»

قالت: «دع عنك هذا المزاح يا نيكولو.»

في لحظات، تدفقت كل عواطفها المستورة نحوه والتي كانت تخفيها في أعماقها نابذة إياها، مرة واحدة وبكل تيارها الجارف. وامتلأت ذعراً لذلك وخشية من أن يقرأ عواطفها في عينيها، فاندفعت تقول بسرعة: «إلى جانب هذا، فقد كنت أخبرتك بأنني لم أكن على موعد هذا الصباح. والرجل الذي كان معي في الحديقة الليلة الماضية قدم نفسه إليّ باسم سيزار برونيللي وهو صحافي قائلاً إنه أحد المدعوين.»

لوى نيكولو شفتيه وهو يقول: «برونيللي؟ آه... نعم إن الإسم مألوف لديّ. إنه رجل غير جدير بالثقة.»

قالت كاتيا بمرارة: «هل هو وحده كذلك؟»

أجاب: «وكذلك النساء. وربما أكثرهن في الحقيقة.»

مد يده إليها قائلاً: «ليس الظرف الآن مناسباً لمثل هذه الأحاديث، فإن عليّ واجب تعريفك الآن إلى واجباتك الزوجية.»

أضعف كاتيا اليأس من المقاومة. وفجأة عرفت أنه لن يمكنها الإستمرار في المقاومة بعد الآن. لقد سبق وأقنعته بأنها أنانية وتبيع نفسها بالمال، وبهذا أبعدته عن أي شعور نحوها بالشهامة التي يمكن أن تكون

www.elromancia.com

متسترة. خلف تصرفاته الحسنة. فالخطأ إذن هو خطأها هي.

بدا أن هذا هو الحل الوحيد لاستعادة كرامتها المهدورة، ولكنها كانت حمقاء إذ ظنت أنها بنبذه بهذا الشكل، يمكن أن تفقده الرغبة فيها. وفكرت وقد أنهكها الضيق والتعب في أن تستغل انتصاره عليها لمصلحتها هي وذلك بالإستمتاع بحبه إلى أقصى ما تستطيع. وكان هنالك طريقة واحدة تساعدها على ذلك وتهيء نفسها ذهنياً، لتقبل وضعها هذا، وهي محاولة تصديق أن نيكولو يحبها حقيقة، وذلك بحمل ذهنها على العودة إلى الماضي، مسترجعة ذكريات ذلك الصباح الذي كانت عائدة فيه من جولة على ظهر الحصان، في قريتها في انكلترا لتجده واقفاً بانتظارها.

كانت هذه الطريقة سهلة، أكثر سهولة مما تصورت، واستبد بها الشوق إلى حبه الذي اختطف منها بكل قسوة.

تنهدت برضى عندما أخذت يدا نيكولو تجمع شعرها الذهبي المتناثر حول عنقها. وعلى كل حال، أليست هي زوجته شاءت ذلك أم أبت؟

ابتدأ جسد كاتيا شيئاً فشيئاً يعود إلى حالته الطبيعية وعادت دقات قلبها تنتظم مرة أخرى. وصفا ذهنها برغم الوسن اللذيذ الذي ما زال يكتنفه. وابتدأت ثورة المشاعر العارمة التي أعمت بصيرتها عن كل تساؤل، بالتلاشي ليحل محلها شعور بالعار.

لقد كان نيكولو عاشقاً رائعاً، ولكن ذكرت نفسها بأن هذا إنما هو مظاهر سطحية لا غير يقوم بها ممثل اعتاد الظهور على خشبة المسرح.

نظرت خفية إلى جانب وجه نيكول الملقى على الوسادة بجانبها، مستمتعة بجمال الرجولة الطاغية المتمثلة فيه.

لقد علمها أبجدية الحب ومباهجه مستجيباً إلى نداء رغباتها، منتظراً أن تفارقها مخاوفها ليقودها إلى الفردوس الأرضي. ولكن، لو أنه لم تكن هنالك صفاته الأخرى التي تكرهها... كيف بإمكانها أن تشعر بالراحة النفسية عندما يكون المخدر الذي تحدثه العاطفة المحمومة قصير الأمد إلى هذا الحد؟

فاجأها صوته يقطع حبل أفكارها: «نعم يا ماركيزة؟ هل استطاع عاشقك الفلاح أن يسعدك؟»

لأول مرة لمحت سواد عينيه من بين أهدابه الكثيفة لتدرك أنه كان يبادلها النظر طوال الوقت.

اجتاحت جسدها رعشة دفعتها إلى سحب الغطاء عليها والجلوس في فراشها ساترة صدرها بركبتيها وقالت بهدوء: «لا تنادني بهذا اللقب من فضلك يا نيكولو.»

تمتم: «ظننتك تحبينه. أليس هو طريقك إلى الشهرة والثروة؟»

بدا على كاتيا عدم الارتياح إذ عادت تواجه الواقع.

قالت: «إنك تحقره عندما تتحدث عنه بمثل هذه السخرية.»

قال بوجه جامد القسمات: «إنك تهبين جسدك للفلاح الوضيع، ولكنك تضنين عليه باستعمال لقبك. يا سنيورا.»

قالت تنهره: «لا تكن سخيفاً يا نيكولو. إنني لا أتصور ثمة شخصاً يستحق لقب (الوضيع) سواء بالولادة أم

بتصرفاته أم بشخصيته، أكثر منك بصرف النظر عن الكدح الذي عاناه أسلافك في سبيل العيش.»

قال ساخراً يستفزها: «واأسفاه...» واستوى جالساً في الفراش مادا يده يتخلل شعرها الذهبي بأصابعه، متابعاً: «لأن العالم مليء بقصص النساء الجميلات ذوات الألقاب اللائي يلهثن خلف رجال أقل مستوى. الملكة كاترين كانت تسمح لصغار الجنود بالدخول إلى غرفة نومها، ما داموا يملكون القوة والجمال...»

سحب ببطء، وجهها إلى الخلف ليطبع على شفتيها قبلة محمومة. ولكنها أدركت بغريزتها، أن تجاوبها مع قبلته هذه لم تكن إلا لتثير النار الخامدة تحت الرماد. وحذرها نداء من أعماقها من مثل هذه المحاولة.

قال بصوت خشن وأنفاسه تلفح وجنتها: «يا جميلتي كاترينا...» فأزاحت هي وجهه عنها بينما تابع هو: «وهنالك أيضاً الليدي تشاترلي التي وجدت عزاءها بين ذراعي حارس الصيد. أهذا ما كنت تريدين؟ أن يتحول الصياد إلى حارس صيد؟»

إذ أدركت بألم أنه لم يبق لديها ما تخفيه عن هذا الرجل الذي شاركته إسمه ومخدعه، لجأت إلى المراوغة، فقالت برقة: «لقد أخطأت في تشبيهاتك. إنه سارق الصيد الذي تحول إلى حارس الصيد وليس الصياد. ولكنني أوافق على أنك عاشق قادر ولو أنه ليس عندي أسباب تساعدني على المقارنة.»

استدار إليها فجأة قائلاً: «ولن تكون عندك تلك الأسباب، ذلك أن مكانك عندي ومعي فقط.»

قالت محتجة وهي تستعيد في ذهنها الدور الذي خططت لتنفيذه: «إنك إذن تجعلني سجينة عندك بدلاً من زوجة.»

هز كتفيه قائلاً: «إن مكانك وطعامك لا يمكن أن يحصل عليهما أي سجين. وأنا مرغوب أكثر من أي سجان آخر. قد لا يكون حبنا قياسياً، ولكنه يسير نحو الأفضل ما دمنا نبدأ حياتنا معاً دون توقعات زائفة. وثمة فائدة أخرى وهي أن جسدينا متلائمان خلقياً، وإذا أنت اتبعت إرشاداتي فإنني واثق من أننا سنصل معاً إلى ما نريده من وراء هذا الزواج، وإذا أنت لم تنبذيني فإنك ستجدينني زوجاً حسناً، وبرهاناً على ذلك فقد طلبت اليوم غداء رائعاً لنا في الشرفة داخل الحديقة، وبعد ذلك لك الخيار في قضاء بقية النهار. هل هنالك شيء أحسن من هذا يمكنني عمله؟»

قالت موافقة بهدوء: «كلا.» لم تشعر بالرغبة في الخصام معه في هذه اللحظة. ليس الآن، وجسدها كله في حالة استرخاء ووسن. لقد ربح هو المعركة الأولى. وحالياً رضيت هي في أن تسمح له بشعور الفوز هذا. ولكن، قبل أن تنتهي هذه الحرب بينهما ستكون هناك معارك أخرى عديدة. وفي نفس الوقت عليها أن تنتظر إلى أن يتضح لها نوع المسألة التي يأخذها نيكولو ضد جدها ثم تقرر كيفية الخلاص منه كلياً دون أن تسبب ضرراً لمستقبل الجد. في ذلك الحين فقط، سيكون في إمكانها أن تهرب من الرباط الذي يستعبدها.

www.elromancia.com

الفصل السادس

على الشرفة في الحديقة تناولا غداءهما المكوّن من طبق من الأرز مخلوطاً بالخضر المفرومة، والفطر البري والهليون والسمك والكسترد بالقشدة والحلوى، والبوظة. وكذلك طلب نيكولو المياه المعدنية على المائدة.

رفضت كاتيا المشروبات الروحية مكتفية بالقهوة السوداء، تشربها بينما جلسا بعد الطعام على أرجوحة مستطيلة تشرف على القناة الكبيرة. كانت تجلس بجانبه على الوسائد الناعمة شاعرة بانسجام يشمل جسمها وقد تلاشت مشاعر الألم في نفسها مؤقتاً بتأثير السعادة العارمة التي اكتنفتها إزاء الهدوء والأمن وجمال الطبيعة الفائق، في هذه الحديقة. الجمال الذي تشرف عليه من مجلسها هذا بجانب هذا الرجل الذي على الرغم من كل الذي عرفته عنه، يمكنه وحده أن يسرّع خفقان قلبها.

قال وهو يرفع كأسه إلى شفتيه ناظراً إلى جسمها المسترخي بجانبه: «رائع. إن عبير أزهار شجر اللوز يختلط بعبير جسد الحبيبة. يجب أن نذهب غداً إلى الكاهن لنتدبّر أمر الزفاف الكنسي، يا حبيبتي، وذلك في كنيسة سانتا ماريا المعروفة باسم (علبة المجوهرات الذهبية)»

فقالت تخفي فزعها الداخلي بتظاهرها بالتودد: «علبة المجوهرات الذهبية؟» إنه إسم جميل.»

قال نيكولو موافقاً: «إنها أجمل كنيسة في العالم.

صغيرة ولكنها رائعة الجمال، تشبه تماماً علبة المجوهرات التي أملكها أنا.» ورفع يده يرفع خصلات شعرها الذهبية الجميلة المتناثرة على كتفيها، ولكن نظرته هذه لم تخفف من لمعان عينيه السوداوين. وتابع: «وغداً سنضع قائمة بأسماء المدعوين وسنجهز بطاقات الدعوة. ولكن، حيث أن مزاجي طيب اليوم فسأترك لك بقية اليوم تفعلين فيه ما تشائين.»

حان الوقت الآن لتخبره أنها لا تريد أن تحتفل بزواجها في الكنيسة، ولكن هذه الكلمات المعارضة له رفضت أن تخرج من بين شفتيها. لقد رفضت مشاعرها، التي استمتعت بامتلاكه لها بالمسارعة إلى نجدتها وذلك بمدها بالغضب اللازم لتتحدى عمله هذا. إلى جانب ذلك، فهي كلما وجدت فرصة لتسوية الوضع بينهما إذا بتلك الفرصة تضيع حيث ان شيئاً ما في أعماق نفسها، يميل إلى تمديد أمد الهدنة بينهما.

قالت بتردد وهي تشعر بما يشبه الدوار من تأثير أريج الأزهار العابقة في الجو، وقد بعث دفء النهار السكينة إلى نفسها: «هل يمكننا البقاء هنا لتبادل الحديث لفترة؟»

نظر إليها قائلاً وهو يضع شفتيه على وجنتها: «وما الذي تريدين أن تحدثيني به؟»

قالت: «عن خطتك للمستقبل. مثلاً، إلى متى سنبقى في البندقية؟»

قال وهو يلامس ذراعها: «إلى أن ينتهي زفافنا الكنسي.»

ابتعدت عن ملامسته، في محاولة لإبعاد تأثر حواسها به،

www.elromancia.com

بينما تابع هو قائلاً: «أظن أن (الماركيزة) يجب أن تكون حفلة زفافها متناسبة مع لقبها النبيل. وهي ستنتقل إلى الكنيسة في زورق مغطى بالأزهار مرتدية ثوباً يتلاءم مع جمالها.»

قالت: «أحقاً ما تقول؟»

كانت تسخر في أعماق نفسها من كلامه هذا وسرها أنها ما زالت قوية في مجابهته. وشعرت أن عليها أن تتحدى جوابه هذا. فهي حتى ولو كانت تتصرف على اعتبار أنه يحبها، كان عليها أن تعبّر عن استيائها حين جعلها مركز أنظار معظم السيّاح في المدينة.

قال: «طبعاً، وماذا غير ذلك؟ إن في المدينة التي معظم شوارعها الرئيسية مكونة من الماء ووسائل المواصلات في حفلات الزفاف، والجنائز هي التوارب. كذلك ستكون حولك القوارب حيث يعزفون لك الموسيقى الشعبية في البندقية. إن أسرتي لا تتوقع مني أكثر من هذا. لقد انتظروا طويلاً لكي يروني أتخذ زوجة. حتى أبي أعجبه إصرار جدك على أن يعقد زواجنا قبل أن تتركي انكلترا معي وهولن يهدأ له قرار قبل أن يرانا متزوجين بصورة صحيحة في الكنيسة تبعاً لتقاليدنا.»

رفعت كاتيا حاجبيها بسخرية وهي تقول: «ماذا؟ أليس ثمة أغاني حب من بلدك نابولي تضاف إلى هذا الجو الرومانسي؟»

لم تشأ أن تفسر انتقاده اللاذع للاحتفال الذي جرى لزواجهما في قريتها في انكلترا. ذلك الذي كانت تراه كثيراً على ذلك العقد الذي يسهل فسخه كما كانت تتمنى، ولكن أمنيتها لم تتحقق.

قالت: «إنها مظاهر سياحية لا تعجبني.»

هز كتفيه العريضتين قائلاً: «إن للبندقية إرثها الشعبي الضخم ومن الواجب احترامه.»

إذن، فهو يريد أن يحتفل بعرضها أمام الناس كما يعرض الفاتح غنيمته... على من يا ترى، يريد أن يؤثر بهذا؟ هل هو زوج جينا كابريني؟ وفكرت بمرارة، ربما كان هذا عنده من الأهمية بقدر ما كان لأسرته، في هذا الأمر.

استغربت الجفاف الذي شعرت به في فمها، ورفعت عينيها الصافيتين تمعنان النظر في وجهه قائلة: «وبعد ذلك؟»

قال: «سنستمتع بعرسنا كما استمتعنا هذا الصباح وكما كان يجب أن نستمتع به الليلة الفائتة. ماذا أيضاً؟» ونظر إلى ناحيتها، فقالت: «أعني كم سنبقى في البندقية بعد انتهاء الاحتفال؟» سارعت بهذا الجواب رافضة به إذلاله لها بذكر ما يسميه استمتاعاً.

أجاب: «بأسرع وقت ممكن.» ومد ساقيه الطويلتين رافعاً وجهه إلى السماء وهو يتابع «سأقول للبندقية وداعاً وأنا آسف لذلك. ولكن هناك أكوام من العمل في ميلانو تنتظر اهتمامي. ولهذا يحسن أن نقضي أكبر جزء من شهر عسلنا قبل الزفاف. ويجب علينا أن نشكر جدك لجعله يثبت زواجنا من جهة الدولة. وهكذا لن نكون ضحيتي ألسنة الناس بينما نكون في انتظار تنفيذ خططنا الضرورية.»

نظرت كاتيا بعيداً عن نيكولو تخفي ألمها الذي شعرت به لدى ذكره جدها. وفكرت بأسى في جدها... كيف أمكنك

أن تبارك مثل هذا الرجل؟ كيف أمكنك أن تفرض عليّ زواجاً دون حب؟

ربما كان عليها أن تكره جدها، ولكن كل ما أحست به نحو الرجل العجوز هو الشفقة، إذ كانت تدرك أنه كان لا بد واقعاً تحت ضغط شديد دفعه إلى أن يوقع بها بهذا الشكل.

قالت ببرود: «عليّ أن أرسل إليه وإلى عمتي بيكي بطاقة تحية بالبريد غداً.» وعادت تفكر في ظروفها الحاضرة وقد صممت على أن لا تفصح عن شعورها الحقيقي. وسألته: «حدثني مرة أخرى عن شقتك في ميلانو.»

في الأيام الحلوة الماضية التي سبقت الزواج في «ساديغهام» قريتها، كان نيكولو قد أخبرها عن شقته الكبيرة في ميلانو حيث يمضي معظم أيامه. والآن، إذ سألته مرة أخرى، أخذ يشرح لها جمال الشقة والأثاث والغرف، مخبراً إياها عن المدينة والحدائق، واضعاً لها صوراً ملونة عن المحلات التجارية ومراكز اللهو التي تنتظرها، ومن دور السينما المحلية إلى مسرح «لاسكالا» الفخم.

ما أن مالت الشمس نحو الغروب، ودبت البرودة في الهواء الدافىء، ورأت هي أن تسبغ جواً طبيعياً حولهما، وقد ساورها شعور بأنه، مهما حمل إليها المستقبل من متاعب، فإن هذا اليوم الرائع سيبقى في ذاكرتها إلى الأبد. وهكذا استمعت بأدب وهدوء وهو يتحدث إليها عن المباهج التي تنتظرها في ميلانو.

لما رأى تشجيعها له على المتابعة، ابتدأ يحدثها عن أصدقائه وزملائه، وأكثر من ذلك عن عمله، عن آماله وطموحاته في وضع تصاميم لسيارات ليست جميلة وعالية

الكفاءة فقط، وإنما أكثر أمناً. وكان يتكلم بحماس كلي إلى حد وجدت نفسها تتجاوب معه في حماسه هذا وتشجعه على شرح نظرياته هذه، وتسأله عن دقائق ميكانيكية باهتمام أثار استغرابها هي نفسها، إذ انها لم تكن مصممة على مشاركته حياته مدة أطول مما يجب.

كان المغيب قد حل عندما وقف نيكولو ماداً يده يساعدها على الوقوف وهو يسألها متكاسلاً: «أثمة أسئلة أخرى يا كاتيا؟ لم أكن أظن أنك تهتمين بطريقة حياتي وعملي إلى هذا الحد.»

بسبب هذه اللحظات الثمينة، أدركت أن علاقتهما قد توطدت إلى حد خالت فيه أنهما حقاً يهتمان ببعضهما البعض. اعتبرت أن تجاوبها البالغ معه واهتمامها بالمعلومات التي كان يشرحها لها، خيانة لنفسها... وحثت نفسها على أن تضحك ساخرة وهي تجيب: «إنني فقط أطمئن نفسي بالنسبة لقدرتك على توفير الحياة التي أستحقها...»

قال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة: «صدقيني يا كاتيا، ان بإمكاني أن أعطيك كل ما تستحقين.»

قالت: «هذا حسن» وقد صممت على أن تتجاهل التهديد المبطن الذي تضمنه كلامه.

تابعت تقول: «أخبرني يا نيكولو. ما مبلغ الأهمية، بالنسبة إليك في أن ترتبط بالزواج من أسرة لورنزو؟ أعني... إفرض أنك لم تجدني جميلة، هل كان في ذلك ما يجعل الأمر مختلفاً بالنسبة لخططك؟»

قطب جبينه قائلاً: «إنك تنشدين المديح؟ أظنني سبق

وأخبرتك بأن رأيي في مظهرك ليس لي عليه اعتراض.»

قالت بإصرار: «ولكن إفرض أن الأمر مغاير، هل كان الأمر يستحق منك أن تتزوج مني؟»

نظر إليها ساخراً وهو يقول: «بالطبع. فالثياب الغالية والماكياج والكوافير، كل هذا يصنع العجب لأقل النساء جمالاً. ولكنه لا يضيف النبل إلى أولئك الذين ولدوا بدونه. إن شكلك هو فائدة إضافية وهو ما عزمت على الإستمتاع به إلى أقصى حد. وإنني قد جعلتك غير مرتابة في ذلك.»

فاستجمعت أفكارها لتقول كاذبة: «نعم... كلا... المسألة هي، منذ البداية كنا نحن الإثنان نمثل دوراً أمام جدي، وعندما رجعنا إلى إيطاليا...»

قال ضاحكاً: «كنت سأتركك لتدابيرك، حسناً إنك الآن ترين الأمور بشكل مختلف. ألم يخبرك أحد قط أن الموجود هو بنفس قيمة الممتنع عند أكثر الرجال؟ وأنت بصفتك زوجتي موجودة قطعاً. أليس هو القديس بولس الذي قال إن من الأفضل لك أن تتزوج من أن تحترق؟»

بدت في لهجته سخرية باردة وهو يوجه إليها كلاماً بليغاً: «في مجتمعاتنا العصرية هذه، فرص الاحتراق أصبحت واقعاً. ولو أن ذلك ربما كان غير ما عناه القديس الطيب.» وسكت برهة يراقبها بإمعان ليعود فيقول: «لقد فات أوان الندم. أو هل الأمر أنني لم أحقق، كعاشق توقعاتك؟»

أثار أعصابها التعبير الذي بدا في عينيه القاتمتين وقالت محتجة: «كلا... ليست هذه هي المسألة.»

قال: «هذا حسن. وأنا مسرور لذلك، إذ أن الصفقة هي

الصفقة، وأنت لن تصبحي سيدة القصر إلا إذا أديت هذه الخدمة بالمقابل إلى المالك.»

قالت: «زوجة بالإسم فقط لتحقق لك مطالبك الأخرى في المظاهر والنبل... أليس هذا كافياً لك؟»

قالت ذلك وقد شعرت بالإهانة لتحقيره لها.

أطلق إشارة اعتراض من يده وهو يقول: «الزوجة هي خليلة حاضرة على الدوام.»

لم تستطع أن تمنع شهقة دهشة إزاء جوابه القاسي ثم قالت: «هل هذا الوضع هو إجباري؟»

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة النمر، قائلاً: «بالطبع. ومن هو أفضل مني ليدربك على مثل هذا النظام؟ أو لعلك نسيت كم تألم والدي على يدي ليوبولدو، جدك الأكبر، الطاغية؟»

كانت قد نسيت للحظة. وعادت تشعر بالضيق الذي أصابها عندما أخبرها للمرة الأولى عن الثأر الذي بين أسرتيهما، ولم تستطع السيطرة على الرجفة التي اعترتها.

قال لها: «أتشعرين بالبرد يا كاتيا؟» وظنت هي بأنه تعمد سوء الفهم حين اقترب منها يهم بمعانقتها، ولكنها أسرعت مبتعدة عنه.

واجهته بوقاحة متجاهلة سؤاله: «أخبرني شيئاً واحداً يا نيكولو. هل كان جدي على علم بكل الأسباب التي جعلتك تتخذني زوجة؟»

توقف لحظة، ثم أومأ برأسه قائلاً: «أوه، نعم، ولكن، يمكنني القول إنه لم ينخدع ببراعتي تلك.»

www.elromancia.com

تمنت هي لو استطاعت أن تعتقد بأنه يكذب، ولكن قلبها أخبرها بأنه يقول الحقيقة. وقالت: «لقد فهمت.»

قال: «أحقاً يا كاتيا؟»

كان قد لحق بها بسرعة بحيث لم تستطع تجنبه، ليمسك بها من كتفيها ويجرها إليه مواجهاً إياها وهو يقول: «أشك في أنك فهمت. أظن أنك بحاجة إلى أن تعرفي المزيد. ولكن، دعيني أعيد عليك أنا السؤال. هل يعرف جدك بالبواعث الرائعة التي حملتك على الزواج مني؟ هل سبق وأسررت إليه بكراهيتك لمهنتك التي اخترتها وما إذا كان قد تدبّر أمرك بتشغيل مبلغ كبير من أمواله الخاصة؟ وهل هو يعرف انك بركضك وراء الثروة والجاه رضيت أن ترتبطي برجل لا تشعرين نحوه بغير الحسد؟» وهزها برفق وهو يقول متابعاً: «حسناً يا كاتيا؟ ماذا تقولين؟ هل هو يعرف الحقيقة؟ أم انك خدعت جدك هو أيضاً بادعاء الحب لي؟»

نظرت ثائرة إلى الوجه الذي ملأ أحلامها منذ أول مرة رأته فيها، وأيقظ رغباتها. ماذا تستطيع أن تقول؟ هل تغالطه بالإدعاء بأن جدها كان مشتركاً معها في غرورها الذي أدعته لتحقيق أنانيتها؟ ولكن هل في عدم قولها ما يسبب الضرر لجدها العجوز؟

أخيراً قالت وقد سرها ان أمكنها الابتسام بعد جهد: «طبعاً لقد خدعته. لقد غششته كلياً!»

قال: «إذن فإنني على ثقة من أنك يمكن أن تتابعي ذلك وتخدعي أبي وأمي كذلك. إذ كما تعلمين كانا بانتظار الوقت الذي أستقر فيه وأنشىء أسرة. وأنا لا أريد لهما الشعور بخيبة الأمل في زوجة إبنهما.»

تركها وهو يقول: «حسناً يا عزيزتي، لقد وعدتك بأن أترك لك الخيار في قضاء هذا النهار. يجب أن تخبريني برغباتك.» وذكرها لمعان عينيه بقدرتهما، هما الاثنين، على الخداع، لتحوّل هي نظراتها عنه مخفية عنه ألمها الدفين.

عادت إلى نفسها وقد صممت على متابعة الدور الذي سارت فيه، لتقول: «حسناً، إنني أحب التجوال في الشوارع للتفرج على الواجهات إلى أن نصل إلى الريالتو. وبعد ذلك أحب أن نتناول وجبة خفيفة في أحد المطاعم المنتشرة على ضفاف القناة، ثم...» وتوقفت عن الكلام، فقال يستحثها رافعاً حاجبيه: «تابعي كلامك.»

قالت: «ثم أحب أن نعود إلى سان ماركو، حيث نتناول القهوة ونستمع إلى الموسيقى متمتعين بمنظر طلوع القمر.» وسكتت مسرورة.

قال ساخراً بلطف: «إنها رغبات سائحة.»

قالت بهدوء وقد عكست عيناها الزرقاوان غصة حزينة داهمت نفسها فجأة: «حسناً، هذا هو ما أريده. لقد كان والدي إيطالياً حتى أمس. فهل أنا مخطئة إذ أتمثل بأولئك السياح في إبداء إعجابي والرغبة في الاستمتاع بمناظر البندقية؟» ورفعت ذقنها بتحدٍ «لو لم تقطع عليّ جولتي هذا الصباح لكنت قد تفرجت على سان ماركو ودوغ بالاس. هل تتوقع مني عدم الإكتراث لكل هذا الجمال؟»

قال: «وكيف يمكنني ذلك وأنا نفسي أحب الجمال؟ لو كنت أعلم في ذلك الحين، أن كل قصدك هو التفرج على الأبنية لكنت سمحت لك ببضع لحظات ترضين فيها فضولك.

www.elromancia.com

ولكنني شعرت أن رغبتك ربما كانت فقط منحصرة في مقابلة أحد ما في أحدى السفن السابحة في القناة.»

قالت بازدراء: «إنك تعرف أن هذا غير معقول. حتى ولو كنت معتادة على التقاط الرجال، فإن نظام أمن السفن يمنع دخول أحد دون تصريح إلى السفينة.»

قال: «إذن دعينا نقول إنني في هذا الصباح كنت مصمماً على أن يكون لي دور في البحث عن اكتشافات جديدة في المدينة، ولكن، بما أن غرضك هذا قد تحقق، فإن لي شرطين.»

قالت كاتيا وهي تهز كتفيها متسائلة عما تراه يخطط لكي ينغص عليها بهجتها: «نعم، وما هما؟»

قال: «الأول هو أن لا ترتدي ملابس تشبه ما ترتديه السائحات.»

قالت: «موافقة، مع أنك تظلم معظم زوار المدينة برأيك هذا، وما هو الثاني؟»

قال: «أن تتذكري أن النهار ينتهي عند منتصف الليل.»

وبدا لها هذا معقولاً، فوافقت عليه، إذ لم يكن لديها خيار آخر، هذا إذا كانت تريد أن تستمتع بنهارها هذا في البندقية. وكافأتها ابتسامة نيكولو الظافرة.

كان كل ما تريده هو الترويح عن نفسها قليلاً. وفكرت في ارتداء ثوب وردي دون كمّين بفتحة عنق واسعة وتنورة جميلة جداً، ومصنوع من الحرير الهندي الخالص، وقد اشترته من محل في لندن. وكانت محظوظة إذ وجدت في ذلك الحانوت في سان ماركو، شالاً بنفس لون الثوب وهو من النعومة والرقة بحيث يمكنها وضعه في حقيبة يدها

ويمكنها استعماله بوضعه على كتفيها إذا هي شعرت بالبرد مساءاً.

عند دخولهما غرفتهما، تساءلت عما إذا كان نيكولو سيقوم بحركة يطالب فيها بجسدها مرة أخرى. وأحست بالارتياح عندما لم يفعل. ويبدو أنه سيحافظ على وعده لها. فهي سترتاح إذن إلى أن تدق الساعة الثانية عشرة.

عندما أصبحت جاهزة للخروج، كان هو بانتظارها في غرفة الجلوس في شقتهما. وكان يرتدي سروالاً فاتح اللون مع قميص بني من الحرير وربطة عنق مناسبة.

نهض واقفاً لدى رؤيتها ثم أخذت عيناه تتفحصانها ابتداء من شعرها الذهبي المتموج على كتفيها، إلى خفّها الأنيق الذي يبرز رشاقة قدميها. كان يتأملها بعين نقادة جعلت الدم يتصاعد إلى وجنتيها. فقالت وقد ساءها تباطؤه في التفرّس فيها: «حسناً، هل تراني أعجبتك يا سيدي؟»

قال: «نعم، تعجبينني ولو أنه من غير المحتمل أن نقابل أحداً ذا أهمية.»

كان ذلك اليوم من أسعد أيامها حتى وعلى الرغم من تهكم نيكولو في أكثر الأحيان. وتساءلت كاتيا، بعد عدة ساعات، وهي تجلس على مقعد في ساحة سان ماركو، خجلى من نظرات المارة، ما الذي دفع رساماً هناك ليرسم لها صورة أمام الناس الذين كانوا مجتمعين حولهما معجبين.

لقد كان جلوسها إلى الرسام ليأخذ لها رسماً، فكرة نيكولو نفسه وكان هو الذي اختار لها هذا الرسام من بين مجموعة من الرسامين كانوا يعرضون بضاعتهم تحت

www.elromancia.com

السماء المظلمة المرصعة بالنجوم. وعندما سمعت همهمات الإعجاب من المتفرجين حولهما، علمت بأنه قد أحسن الاختيار حقاً.

اعترفت بدهشة، في ما بينها وبين نفسها، بأن زوجها هو حقاً مرافق ممتاز. فقد كان ينتظر بصبر، وهي تنتقي مختلف أنواع الملابس من المحلات المتعددة المنتشرة في الشوارع بين الريالتو وسان ماركو. ولم يبد أي اعتراض وهي تجول بين واجهات المحلات التي تبيع أقنعة «الكرنفال» والمجوهرات الزائفة، سامحاً لها بالتجوال بين الأزقة والطرق الضيقة مجتازة المقاهي الصغيرة المنتشرة على الأرصفة إلى جانب المعروضات المختلفة من أغطية الطاولات وأغطية وملاءات الأسرّة والشالات الفضفاضة والأكواب الزجاجية التي تتألق تحت مصابيح الشوارع مما يضيف سحراً خاصاً إلى صفات تلك المدينة الرائعة.

بعد تلك الساعات التي طافت فيها في الشوارع، مفعمة حواسها بما تراه وتسمعه وتشمه من روائح العطور، انتهى بهما المطاف إلى الريالتو حيث شعرت بشيء من خيبة الأمل وهي ترى المطاعم قد أقفلت، وكان يجب أن تدرك أن المراكز التي يكثر فيها السياح، تقفل باكراً.

عندما قادها إلى مطعم في الهواء الطلق يشرف على القناة الكبيرة، سائراً مباشرة إلى مائدة محجوزة، علمت بأنه لا بد واغتنم فرصة انشغالها بالشراء، ليتصل هاتفياً بهذا المطعم ويحجز مائدة لهما.

لهثت قائلة دون أن تتمكن من إخفاء سرورها: «أوه يا

نيكولو... ما أجمل هذا.» كانت المصابيح الكهربائية تتدلى من بين الأزهار المعرشة فوقهما لتتأرجح في النسيم.

لم يكن الظلام قد انتشر تماماً، ومن مكانها كان بإمكانها رؤية المارة يمشون فوق جسر الريالتو، وكذلك مراقبة الزوارق تخرج من مرساها في أسفل المطعم، كذلك النظر إلى الأبنية المقابلة بنوافذها الشبيهة بالإبهام وشرفاتها المزخرفة.

لم تكن جائعة، ولكن بما أنه لم يكن هناك ضغط عليهما لإنهاء عشائهما وترك المائدة، فقد تناولت الطعام والحلوى والفواكه مستمتعة بكل ذلك ببطء.

حدثت نفسها بأن كل ذلك كان حسناً... وكانت تشرب المياه المعدنية بينما كان نيكولو يرشف الشراب.

عندما تركا المطعم، متوجهين إلى سان ماركو، كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف، فتناولا القهوة في مقهى «فلوريان» واستمتعا بسماع الموسيقى، بينما كان السيّاح والبنادقة يطوفون في المكان الذي أطلق عليه نابليون إسم (غرفة جلوس أوروبا.)

بينما كانت كاتيا تعتقد انهما في طريقهما إلى القصر، دهشت إذ رأت نيكولو يتجه بها إلى مكان الرسام. واحتجت، ولكنه أصر على ذلك بحركة مسيطرة من يده أوقفت اعتراضها.

تعالت صرخات الاستحسان والتهليل من جموع المتفرجين وهم يشيرون محولين انتباهها إلى كرسي الرسام. واستدارت هي مقتربة لترى صورتها مكتملة بينما اقترب نيكولو من الرسام يدفع له أجرته.

شهقت بدهشة بالغة وهي ترى نفسها تتطلع إلى صورة امرأة غريبة عنها. هذه المخلوقة الرائعة ذات العينين الواسعتين البريئتين كعيني طفل وابتسامة الجيوكندا الغامضة في وجه بيضاوي عالي الوجنتين «وغمازة» في الذقن.. كيف أمكن لهذا الرسام أن يراها بهذه الصورة؟ ونظرت بطرف عينها إلى نيكولو متوقعة عدم موافقته على الرسم الذي يشبه رسم غطاء علبة الشكولاته... ولكن، ها هوذا يدفع الأجرة للرسام ويلف الصورة بالورق الملون ثم يحملها شاكراً.

قالت بينما نيكولو يأخذ بيدها يقودها ليخرجا من سان ماركو: «لا عجب أن يجمع كل هذا المال من عمله هذا، ما دام في استطاعته أن يجعل من أي امرأة نجمة سينمائية.»

ضحك نيكولو لقولها هذا وقال: «إنه ككل الرجال الإيطاليين عندما تفتنه امرأة ما، يضفي ملامحها، بالغريزة على وجوه كل النساء الأخريات. فهو ينظر إليهن بعين العاشق، إلى جانب عين الرسام، وهكذا تخرج الصورة من بين يديه بحيث لا تكاد تميزها صاحبة الصورة نفسها.»

مد نيكولو ذراعه حول خصرها يجذبها إليه مقصراً خطواته الواسعة لتناسب خطواتها، وبهذا أخذت سيقانهما تحتك بعضها ببعض، ثم قال: «هل تعترضين على ما وجده الرسام في طبيعتك؟»

أجابت بسرعة: «كلا في الحقيقة. فلقد جاملني كثيراً فيها.»

لكنها في أعماقها لم تكن راضية. لقد اكتشف الرسام

حقيقتها البريئة المطلة من عينيها وهذا ما لم تكن تريد لنيكولو أن يعرفه. كانت تريد أن تخفيه عنه بأي ثمن ما دامت تسعى إلى أن يطلق سراحها من الشرك الذي أوقعها فيه.

فجأة، دقت الساعة منتصف الليل. وعندما تلاشت آخر دقاتها، توقف نيكولو عن السير ومد ذراعيه يأخذها بينهما ليطبع قبلة على وجنتيها. وحاولت في البداية المقاومة ولكن سرورها البالغ من هذه الأمسية كان ما زال مسيطراً عليها، وذكرياتهما معاً ما زالت حية في نفسها. وهذا ما منعها من أن تخلص نفسها من عناقه المسيطر. وهكذا وقفت على رؤوس أصابعها تحيط عنقه بذراعيها مستسلمة لعناقه.

عندما تركها من بين ذراعيه كان يتنفس بصعوبة. وقال لها وهو يمر بإبهامه على شفتيها بينما كانت عيناه تتألقان: «إنك تتعلمين بسرعة يا ماركيزة، على الرغم من امتناعك في البداية، عن تأدية واجباتك. وإنني متأكد من أنك ستؤدينها في النهاية بشكل حسن جداً.»

عندما قادها نيكولو نحو مرسى القناة الكبيرة، أدركت كاتيا أنه مرة أخرى سبق واتصل هاتفياً بجوفاني ليوافيهما بالمركب. وسمحت بأن ينزلاها إلى قمرة المركب، في الوقت الذي كان فيه جسمها ما زال يرتجف لهذا التجاوب المفاجيء منها نحو نيكولو. ولفت الشال حول كتفيها اللتين كانتا ترتجفان من البرد، بينما كانت تدرك في أعماقها أن هذه الرجفة لم تكن إلا من توقع ما ينتظرها، وليس من برودة الليل.

إنها تعرف أن نيكولو لا يحبها، ولكنه يرغب فيها. ولكن،

www.elromancia.com

لماذا تراها لم تعد تشعر بالإذلال إذ يُطلب منها أن تتصرف كامرأة تؤدي واجب الولاء لرجل ارتبطت به؟ وإذا كان ما قاله لها سيزار برونيللي صحيحاً، أن نيكولو قد تزوج ليجعل منها هي ستاراً يختفي وراءه لكي تتمكن جينا من الحصول على الطلاق من دون فضيحة تصيب رفيقها، في هذه أيضاً، لم تعد تشعر بالمذلة أو الغضب! لماذا؟ هل هو تأثير سحر البندقية، أم لعله رواسب حبها السابق لنيكولو، أم قد يكون ذكريات مشاعرها نحوه عندما كانت تعتقد انه يحبها؟ ولكن، لماذا ترى الغضب الذي هي بحاجة إليه لتثور في وجهه، هذا الغضب يرفض أن يشتعل؟

على الرغم من هذا الحل الذي توصلت إليه فإنها عندما عادا إلى غرفتهما في القصر، لم تجد في نفسها دفاعاً أمام رغبته المتسلطة لتجد نفسها تنهار لدى أول لمسة منه.

عندما استيقظت وضوء الفجر يتسلل من بين الستائر ليستقر على وجهها، نظرت إلى جانبها لترى فراشه خالياً، ومدت يدها إلى حيث كان يرقد لتلامس يدها برودة الملاءات الحريرية. وجلست في الفراش لتنتبه إلى باب الحمام المغلق يتسلل النور من أسفله. ومضت لحظات قبل أن يخرج نيكولو منه عائداً إلى الغرفة. وأدهشها أن ارتدى بدلة عمل رمادية وقد علت القميص الفاتح اللون ربطة عنق داكنة الزرقة.

هتفت وما زال النعاس يثقل جفنيها: «نيكولو.»

اقترب هو منها ثم جلس على حافة السرير وهو يقول: «عليّ أن أذهب إلى ميلانو دون إبطاء. لقد تلقيت مخابرة هاتفية هذا الصباح. ويظهر أنها أتت ليلة أمس ولكن

جوفاني كان معنا في المركب بينما الخدم كانوا قد ذهبوا. لقد تركوا ملاحظة في آلة الجواب في الهاتف، ولكن يمضي بعض الوقت قبل أن أصل لأسمع ما تقول.

قالت وهي تخفي خيبة أملها: «ولكن، إلى متى سيطول غيابك؟»

أجاب: «يوماً أو يومين. هذا يعود إلى طبيعة ما سأجد بانتظاري.»

ماذا كانت تتوقع؟ لقد أمضيا ليلة ممتعة البارحة وفكرت بمرارة في أنها قد تقبلت وضعها كمحظية تملك من الجاذبية ما يكفي لإرضاء سيدها.

سألته وهي تعلم جوابه مقدماً: «هل يمكنني الحضور معك؟»

قال رافضاً باقتضاب: «ليس ثمة وقت. سيوصلني جوفاني بعد دقائق إلى حيث تنتظرني سيارة تأخذني رأساً إلى ميلانو. كل الخدم سيكونون في خدمتك، تستدعينهم متى شئت فتتسلين معهم كما تريدين، فإنك ستكونين بين أيدٍ أمينة وقد تركت لك مبلغاً كافياً على الطاولة في غرفة الجلوس لكي تنفقي منه.»

شكرته وهي تحمل نفسها على الابتسام برغم شعورها بالرغبة في البكاء للجفاء الذي ظهر منه. ثم سألته: «هل ثمة شيء سيىء؟»

قال ساخراً من نفسه وهو ينظر إلى وجهها الشاحب: «لا شيء لا يمكن إصلاحه. لقد تصرفت أنا كصبي في عيد الميلاد، ناسياً كل شيء أمام لعبته الجديدة. والآن عليّ أن أدفع ثمن عدم انتباهي لشؤوني الأكثر أهمية.»

عندما أدركها الفزع من قسوة كلامه، إنحنى هو ليقبلها.

www.elromancia.com

كانت قبلة محمومة قاسية متوحشة تقريباً هي قبلة المحارب عند الوداع، ثم قال: «إلى اللقاء، انتبهي إلى نفسك في غيابي وسأسألك عن أي تهوّر يبدر منك عند عودتي.»

كانت هذه كلمات رئيس في العمل أكثر منها كلمات زوج. ولكن، ماذا كانت تتوقع؟ أن تستخلص نيكولو من جينا فقط لأنها مكنته من الحصول عليها؟ إن الحب هو شيء آخر أكبر بكثير من مجرد التوافق الحميم.

عندما تركها وحدها في غرفة النوم الرائعة، ابتدأت تفكر في مستقبلها الموحش، مع قصر مدته، مع الشعور المدمر بالحرمان. وشعرت بازدراء للذل الملازم للدور الذي تقوم بتمثيله، ليس لأنها لا تعرف كيف تشغل نفسها، فإن البندقية بكل سحرها، هي عند عتبة بيتها، وإذا هي تعبت من التفرج على الكنائس، فهناك البحيرات والجزر الأخرى وكلها تستحق الزيارة.

تأوّهت بعمق. لقد أشار إليها نيكولو مرة بلقب خليلة. وقد كان هذا تشبيهاً قريباً من الحقيقة. فقد اكتفى مسجل العقود بتسجيلهما زوجاً وزوجة حسب اقرارهما بنيتهما تلك. إنما لم يتضمن ذلك قسماً ولا عهوداً... لم يكن ثمة إعلان أخلاقي عن الحب والولاء حتى يفرقهما الموت. وهكذا يجب أن تبقى هي إلى أن تكتشف الحقيقة عن الأحداث التي دفعتها إلى مثل هذا الارتباط، ومن ثم تعمل على حله. فهي، بصرف النظر عن الصفقة التي عقدتها مع نيكولو، لا تريد أن تبقى طرفاً في اتحادهما، هو وجينا، اللاأخلاقي، مكرسة ذلك في الكنيسة.

الفصل السابع

جلست كاتيا تعبث بطبق الطعام، وأمامها وجبة مكوّنة من السمك المشوي والسلطة. لم تكن تحس بالجوع وهي تجلس في ذلك المطعم المشرف على القناة، تتطلع إلى الزوارق المخططة باللونين الأبيض والأزرق، بأبراجها الذهبية والخضراء، مربوطة في مرساها.

كانت كاتيا تشعر بالحاجة إلى الراحة، وأي شيء كان أفضل من الرجوع إلى القصر لقضاء بقية النهار في سجنها الرائع ذاك.

لقد مضى يومان ونصف دون أي خبر عن نيكولو... وفكرت باستسلام في أنها ما كان لها أن تتوقع منه خبراً، إذ انه لم تكن تتملكه المشاعر المعتادة لدى كل عريس نحو عروسه! وتساءلت إلى متى كان سيبقى متظاهراً بالحب لها، لو لم تسرع هي في محاولة لإنقاذ كرامتها بالتظاهر بعدم حبها له.

لكن ما للشكوك تساورها وهي تلمس شعوره الجاف نحوها إذ يصمم على العودة إلى ميلانو من دونها، ذلك لأن أي عريس يستحق هذا اللقب، كعريس خصوصاً في إيطاليا، ما كان ليهجر عروسه لمدة أيام بعد ما ظهر من استمتاعهما معاً إلى هذا الحد؟ أم لعل براءتها هي التي صورت لها خطأ، أن زوجها يشاركها نفس مشاعر البهجة، أثناء اتصالهما الحميم؟»

www.elromancia.com

ساورها شعور هو مزيج من الشعور بالذنب وإدراك بأنه كان يجب أن تخبر نيكولو عن معارضتها إجراء زفاف حافل، وذلك قبل سفره إلى ميلانو. ربما كان عند ذاك قد خفف من إصراره على حفلة للزفاف إزاء نيتها هذه، أما الآن فعليها أن تستعد لمواجهته بهذه المعارضة عند عودته متحملة نتيجة رد الفعل عنده بالنسبة لدمه الإيطالي المنفعل عند انهيار خططه.

«هل هي السينيورا كاشياتور هنا؟»

استيقظت كاتيا من شرودها ليبعث في نفسها الضيق مرأى سيزار برونيللي الذي هبط جالساً على الكرسي أمامها بكل راحة. لقد كان هذا المطعم الذي تناولت فيه العشاء مع نيكولو في اليوم الثاني لوصولها إلى البندقية، كان نصف ممتلىء عند وصولها إنما الآن لم يبق فيه سوى موائد قليلة خالية.

ردت عليه تحيته وسؤاله عن صحتها ببرود، وتعمدت عدم الرد على أسئلته، ثم قررت أن تتخلص منه بأن تكذب عليه فقالت: «إنني بانتظار زوجي الذي سيحضر الآن.»

فقال: «إذن فإنك ستمكثين وقتاً طويلاً في انتظاره.»

أشار إلى النادل ليحضر له عشاء لنفسه وزجاجة شراب قبل أن يعاود النظر إلى وجه كاتيا المتصلب الملامح، ليتابع كلامه: «آخر مرة سمعت فيها عن مكان نيكولو كاشياتور أنه كان في ميلانو يتناول العشاء مع جينا كابريني.» وألقى نظرة إلى ساعته ثم قال: «طبعاً لا بد أنه عائد بالسيارة هذا الصباح. ولكن بما أنه أعاد جينا إلى شقتها الليلة الماضية فلا بد أنه سيتأخر.»

صدمت لموجة الألم التي احتاجت جسمها. وضغطت على يديها في حضنها محاولة الاحتفاظ بهدوئها. ثم قالت بجفاء: «أظن أنني غير مستعدة للإهتمام بثرثرتك يا سيد برونيللي.»

قال سيزار محتجاً: «يا عزيزتي السيدة كاشياتور. لا يمكنك أن تلوميني للإهتمام بك، ليس فقط لزواجك العاطفي المفاجىء من نيكولو كاشياتور، ولكن لأنك إمرأة جميلة. وأنا أكره أن أراك مخدوعة من قبل رجل ليس فقط يكبرك في السن ولكن في الخبرة كذلك.»

فكرت كاتيا في أن السكوت من ذهب حقاً، ولكن كيف بإمكانها أن تترك نيكولو معرضاً لمثل هذه الشائعات المؤذية مهما كان نوع شعورها هي نحو زوجها؟ كان الشيء الوحيد الحسن في حديث برونيللي هو توقفه عن مخاطبتها بلقب ماركيزة. وقالت بحذر: «إن زوجي في رحلة عمل في ميلانو. وقد ادعيت العكس فقط من باب التهذيب. وبما أنك لا تفهم بالإشارة، فيجب أن أطلب إليك مباشرة أن تتحوّل إلى مائدة أخرى.»

قال ببشاشة: «هذا غير ممكن، إذ لا يوجد أية مائدة شاغرة، كما أنني طلبت الطعام إلى هذه المائدة.»

قالت وهي تتناول حقيبة يدها من تحت المائدة: «هذا حسن. أرجو لك طعاماً شهياً.»

همت بترك المطعم برغم أنها لم تتناول لقمة واحدة من طعامها بعد، وبرغم أن قدميها تؤلمانها لكثرة ما طافت في المحال التجارية هذا الصباح.

سألها: «أتريدين صورة؟»

أجابت بازدراء متعمدة عدم فهم قصده: «صورة برفقتك إلى هذه المائدة؟ إنه لا يشرفني أن أبدو معك.»

ابتسم سيزار متجاهلاً إهانتها وقال: «صورة لزوجك وجينا كابريني يتعشيان معاً. أو إذا كنت تفضلين صورة لهما معاً يدخلان إلى شقتها. أخشى أن لا تكون الصورة الثانية جيدة لأن السيدة تعمدت إخفاء وجهها. ولكن ساقي جينا كابريني لا يمكن أن يخطئهما من يعرفها.»

تصاعدت غصة في حلق كاتيا. ما أشد حماقتها وهي تصدق ادعاء نيكولو عن المخابرة الهاتفية من ميلانو. ألا يكفي أن يخونها حتى يعرضها للإذلال أمام الناس؟ ومنحها الغضب القوة على الإحتفاظ بهدوئها، فنهضت واقفة دافعة كرسيها إلى الخلف قائلة: «ولكنك أخبرتني بنفسك أن زوجي وجينا كابريني هما صديقان قديمان، فأي شيء غير طبيعي في أن يتناولا العشاء معاً؟ وبالنسبة لإعادتها إلى منزلها، لماذا لا؟ إن زوجي رجل مهذب.»

قال بازدراء: «بالتأكيد هو رجل، ورجل جذاب للنساء. أظن أن من الممكن أن يكون عاد معها إلى المنزل لتناول كوب من الكاكاو قبل النوم، ولكن إذا كان الأمر كهذا فقد استغرق شرب الكوب هذا وقتاً طويلاً. فقد ترك المكلف من قبلي بمراقبة المنزل، المراقبة بعد ساعتين عائداً إلى منزله، دون أن يخرج زوجك من منزل جينا.»

قالت بكبرياء: «والمفروض بي أن أصدق أن حضورك إلى هنا لتجلس معي وتغرقني بشكوكك، كل هذا كان بمحض المصادفة؟»

أجاب برقة: «كلا بالطبع، فقد دأبت منذ الفجر في تمشيط

أماكن السياح آملاً في أن أراك لأخبرك بما يدور من وراء ظهرك. اعتبري هذا نوعاً من الإحسان لك، وذلك قبل أن يشيع الخبر في البندقية بأجمعها.»

ردت عليه ثائرة: «بل سأعتبره نوعاً من الإفتراء. حاول أن تنشر هذه الصور مصحوبة بأي اتهام بسوء السلوك، ليقاضيك محامي زوجي.»

قال معنفاً: «ما هذا؟ ألم تسمعي قط بالقول المأثور وهو أن كل ما ينشر هو حسن، وأن الحقيقة هي أحسن دفاع في تهمة القذف؟ إلى جانب أنه ستكون هناك صور كثيرة لهما معاً أثناء حفلة الغد، وكلها صور بريئة واضحة، بجانب صورة رائعة الجمال لزوجة نيكولو كاشياتور المخدوعة.»

وأردف: «يا لجوزيب كابريني المسكين زوج جينا المخدوع، إنه سيصر على أسنانه لشدة شعوره بالغيظ.»

«حفلة الغد؟» وأفلتت هذه الكلمات من بين شفتيها قبل أن تتنبه إلى إمساك لسانها.

بدا على وجه سيزار برونيللي ندم زائف وهو يقول: «أوه... ألم تعرفي؟»

لعنت كاتيا نفسها لوقوعها في الشرك. وهزت كتفيها وقد ثارت ثائرتها لإهمال نيكولو إطلاعها على كل نشاطاته الاجتماعية وخاصة تلك التي تتصل بها جزئياً. وقالت: «لقد تذكرت الآن أنه ذكر لي شيئاً عن حفلة عشاء ولكن ذهني كان شارداً فلم أنتبه إلى التفاصيل.»

لمعت عيناه سخرية وهو يلمس محاولتها تغطية جهلها: «من الواضح أن مهارة نيكولو كعاشق لا بد أنها تنوم مغناطيسياً ما دامت تجعلك تخلطين بين الأحداث

www.elromancia.com

الاجتماعية الحيوية في البندقية وبين حفلة عشاء بسيطة.»

عندما سمعت ضحكته الخافتة الساخرة، أدركت أنه يجب عليها الذهاب قبل أن تفقد السيطرة على ساقيها. ومنعتها كبرياؤها من أن توجه إلى هذا الرجل الوقح أي سؤال آخر. إن على نيكولو وحده أن يقدم إليها تفسير كل هذا. وقبل أن يدرك سيزار غرضها كانت قد التقطت محفظتها وأرجعت كرسيها إلى الوراء لتقف مستديرة للذهاب.

هب هو واقفاً باحترام وبكل بشاشة ولطف الرجل الإيطالي أخرج من جيبه بطاقة صغيرة وقدمها إليها بهدوء قائلاً: «انتظري، لا بد أن يأتي وقت تحتاجينني فيه، ويمكنك عند ذاك أن تتصلي بي على أحد هذه الأرقام.»

كان عليها أن تتجاهل بطاقته تلك ولكن حاستها السادسة جعلتها تأخذها من يده وتدسها في الجيب الخارجي لحقيبة يدها وهي تدير له ظهرها خارجة.

اقترب منها النادل وهي تسلك طريقها بين الموائد لتخرج إلى الرصيف، يسألها: «ألم يعجبك الطعام يا سنيورا؟»

أجابت ببرود: «بالعكس، كان شهياً جداً بل الرفقة هي التي لم تعجبني.» وأشارت إلى الصحافي الباسم وهي تقول: «إن السيد برونيللي سيدفع حسابي.»

لم يكن هذا انتقاماً كافياً بالنسبة إلى كاتيا التي كانت تود أن تفرغ على رأسه القذر «دلو» ماء بمثل قذارته. ولكن مثل هذا العمل لم يكن ليعززها عند نيكولو في ما لو قبض عليها بتهمة إيذاء شخص بدنياً. ومع سخطها على الطريقة التي جعلت نيكولو يخدعها لتتزوجه، فإنها لم تستطع إنكار

الحقيقة وهي أن مستقبلها ومستقبل جدها يعتمدان على عطائه وسخائه.

إذن، فإن برونيللي قد أخبرها الحقيقة عن نيكولو وجينا كابريني. وعندما تفجر غضبها دموعاً، عند ذلك فقط أدركت كم كانت ترجو أن يكون سيزار برونيللي كاذباً أو مخطئاً. وامتلأت مرارة وهي تستدير مبتعدة قدر ما تستطيع عن ذلك الرجل المتوحش. لم يكن لدى هذا الصحافي أي ضمير ليؤنبه وما هو الدليل الذي يمكنه أن يثبت به لها خيانة نيكولو؟ وما هو قصده من ذلك؟ هل ليجعلها تقوم بتصرف ما يفيده في نشره في صحيفته؟»

بالنسبة للحدث الاجتماعي المقبل الذي ستحضره جينا كابريني، لماذا امتنع نيكولو عن تنبيهها إليه؟ هل كان نيكولو يبدو عديم النزاهة إلى هذا الحد لو لم تلفق له هي أسباباً وضيعة لقبولها الزواج منه، إذ أوهمته أنها تزوجته لثروته؟ كيف استطاعت معايشة هذه الكذبة بعد سماعها ما سمعت من حديث بينه وبين جدها عن السبب الأصلي لزواجهما.

مسحت دموعها المنهالة بيدها غاضبة. جدها! وازدادت تعاستها وهي تفكر في جدها وعمتها بيكي. أمس فقط أرسلت إليهما رسالة تخبرهما عن جمال البندقية وسعادتها هي في استمتاعها باكتشاف كنوزها. دون أن تخبرهما بالطبع بأنها تمضي الوقت وحدها. وتساءلت بحسرة، ما الذي دفعها إلى إخفاء ذلك؟ أغرورها وخيلاؤها؟ أم هدوء وطمأنينة نفس العجوزين؟ إن لدى جدها ما يكفيه من القلق إذ كان قد تعرض للإبتزاز لكي يوافق على زواج مدبّر دون

www.elromancia.com

حب. إن أقل ما يجب عليها نحوه هو أن توفر عليه الألم الذي سيعانيه في ما لو علم باكتشافها الحقيقة. إنها على الأقل ستحاول التصرف في الكيفية التي يمكنها أن تنتشل بها نفسها من هذه الورطة.

فكرت بمرارة متمنية لو أن جدها لم يرتفع شأنه إلى طبقة نبلاء إيطاليا المندثري الذكر. لو لم يحدث ذلك ويتحدث به الملأ، لما عرف إذن نيكولو شيئاً عنها ولبقيت في لندن تقوم بعملها الذي تعشقه بدلاً من التجوال في شوارع البندقية مع آلامها.

عندما تحولت في منعطف، توقفت فجأة وقد تملكتها الدهشة والسرور حين وجدت نفسها أمام كنيسة رائعة قد رصفت جدرانها بالرخام لتلمع بروعة لا مثيل لها. كما أن أبراجها كانت تتألق في أشعة الشمس.

كانت تسير في الشوارع الضيقة خلف الريالتو مبتعدة عن سيزار برونيللي قدر استطاعتها، دون أن تتوقع رؤية مثل هذا الكنز في مثل هذا المكان البعيد عن منطقة السيّاح.

بالقرب منها وقعت عيناها على واجهة مصور فوتوغرافي فوقفت أمامها تتفرج على مختلف الصور التي تمثل العرائس والعرسان. أحقاً! يمكن للحظ أن يكون بهذه القسوة؟ ومزق الألم قلبها، نعم في استطاعته أن يكون كذلك. لقد اكتشفت عرضاً كنيسة سانتا ماريا التي عرض نيكولو عليها أن يحتفلا فيها بزواجهما الكنسي وذلك ليشدها إليه برباط هو أقوى من أي رباط يعقده إنسان. وحدثتها نفسها بغضب، لو أنها وافقت على ذلك، ما الذي كان سيحدث؟ لم يكن ما تتطلع إليه عند ذاك، سوى حياة

مادية مرفهة خالية من المشاعر. حسناً فلتترك الكنيسة وشأنها ما دامت لن تراها أبداً من الداخل بصفة عروس.

كانت نتيجة هذا القرار حسنة ولكنها لا تتناسب أبداً مع فضولها. فقد كانت الشوارع خالية حيث أن كل إنسان كان يتناول الغداء.

لكنها عادت فغيّرت رأيها عندما رأت باب الكنيسة، فدخلت لتطلق آهة سرور وهي ترى ما كان بانتظارها. كان تماماً كمن يدخل علبة مجوهرات، ومن هنا أخذت الكنيسة اسمها. كانت أشعة الشمس تتدفق من النوافذ مرسلة خيوطها على الأعمدة والسقف الذهبية لتتألق هذه خاطفة الأبصار. وكانت لوحات بالحجم الطبيعي تمتد من السقف حتى أسفل الجدران تمثل صور القديسين في مختلف العصور.

كان كل شيء تقع عليه أنظارها مكوّناً من الذهب أو الرخام مما لم تستطع استيعابه في لحظات. ومن ثم جلست في هدوء في أحد الأماكن الخالية. أخيراً هنا في مواجهة المذبح الذي أقيمت في صدره ايقونة مشهورة وجدت عندها الهدوء والسكينة والسلام الذي تنشد.

لا يمكن القول إلى متى ظلت كاتيا جالسة تنظر إلى روعة ما يحيط بها، أو كم أهدرت من الوقت فوق ضفاف القناة أو فوق الجسور، أو متوقفة في كل لحظة متفرجة على واجهات المحال التي تعرض مختلف أنواع البضائع والأزياء. كانت قد نسيت أن تضع ساعتها في يدها قبل خروجها من البيت، لكنها عرفت الوقت من مكان الشمس في السماء فتنبأت باقتراب المساء.

إن أمامها ليلة أخرى تعسة موحشة. وتنهدت وهي تعبر

www.elromancia.com

الجسر الجميل الذي يصل بها إلى القصر، ومن هناك اجتازت البوابة إلى الحديقة لتتوقف أنفاسها وهي ترى قامة زوجها المديدة وهو ينهض من أحد المقاعد ليتقدم إليها محيياً.

هتفت: «نيكولو... لم أكن أتوقع رؤيتك قبل الغد.» وأدركها الفزع لإحساس السرور والبهجة اللذين أحست بهما عند رؤيته. لقد شعرت بالدم الحار يتدفق في وجنتها.

شمل هو بعينيه السوداوين سروالها الفاتح اللون وقميصها القطني الخفيف وهو يقول: «إن وجنتيك تتضرجان يا كاتيا... هل ذلك لأنك سررت برؤيتي؟ أم أنك احترت لأن عودتي على غير انتظار قد أفسدت خطتك في تمضية هذا المساء؟»

قالت: «إنني لم أتوقع قدومك...» وتوقفت عند هذه الكلمات.

نظر إليها مفكراً وهو يقول: «هذا واضح... وإنني أعتذر عن تدخلي في حياتك مرة أخرى بهذه السرعة. إذ من الواضح أنك وجدت ظهوري المفاجيء معرقلاً...»

قبل أن تجيب خطا نحوها يأخذها بين ذراعيه ويرفع ذقنها ليقبلها برقة ثم يقول: «هل هو اللوم ما أراه في عينيك الجميلتين يا كاتيا؟»

ابتسمت بقسوة وهي تتخلص من بين ذراعيه مبتعدة عنه كي لا يقرأ التعاسة في عينيها.

قال لها دون أن يؤثر فيه صمتها: «تعالي.» وأخذ بيدها يقودها إلى داخل القصر صاعداً وإياها السلم الجميل إلى شقتهما. كانت قبضته على يدها شديدة لدرجة تقرب من

الإيلام وهو يقول: «دعينا نرى ما إذا كانت الهدية التي أحضرتها لك من ميلانو ستعيد الابتسامة إلى شفتيك.»

سمحت له بأن يقودها إلى غرفتها بصمت ليناولها علبة مغلّفة بورقة مذهبة مطبوع عليها اسم مصمم شهير.

أخفت ما تشعر به من مرارة وهي تفك رباط العلبة وتخرج ثوباً رائعاً للسهرة. كان بسيط التفصيل بفتحة عنق واسعة وتنورة واسعة ومن دون كمين. كان أهم ما فيه هو نوع القماش. كان القسم الأعلى منسوجاً من خيوط الذهب مع اللون العسلي أخذ يتألق تحت أشعة الشمس المائلة للغروب التي كانت تلقي بخيوطها الباهتة من خلال نافذة الشرفة.

قالت ببراءة: «إنه رائع يا نيكولو.» وحاولت أن تخفي غصة ألم قد تهدد بتدمير هدوئها الظاهر الذي تجاهد للاحتفاظ به.

أومأ برأسه راضياً وهو يقول: «هذا حسن. ظننت أنك قد تحبين أن تذهبي إلى المحلات لتختاري بنفسك. ولكنني لقصر الوقت صممت على مفاجأتك به. لن تكون هناك امرأة في القاعة تماثلك أناقة، ليلة الغد.»

هتفت كاتيا وقلبها يقفز بين ضلوعها: «غداً؟»

إذن فقد أخبرها سيزار برونيللي بالحقيقة. وعادت تسأله مدعية البراءة: «سيكون عندنا حفلة إذن؟»

قال مشيراً بيده: «كان يجب أن أخبرك قبل الآن ولكن شغلتني أمور أكثر أهمية. وكنت ذلك الصباح الذي سافرت فيه في عجلة من أمري أنستني ذلك والقصة هي أن جينا كابريني ستقيم حفلة عرض أزياء عندنا في القصر

مستعملة بعض الموجود في مخازن محلاتها من أزياء. إنه معرض سنوي وبما أن ريعه يعود للأعمال الخيرية لم أستطع رفضه في آخر لحظة.»

مضت لحظات استوعبت فيها كاتيا الموضوع لتقول أخيراً، إذ أظهرته كصورة غير مكتملة لغريق يتعلق بالقشة: «لقد فهمت. هل هذا ما دفعك للذهاب إلى ميلانو؟ لكي ترى جينا وتنهيا التدابير كافة؟»

ألقى برأسه إلى الخلف وهو ينفجر ضاحكاً ليقول: «يا إلهي، كلا... لقد تم تدبير أمر هذا منذ شهور كما أتذكر. وإذا جرت أية مشكلات في آخر لحظة، فهي مسؤوليتها عند ذاك.» وفجأة غادر وجهه الابتسام ليحل محله العبوس وهو يقول: «إن ذهابي إلى ميلانو كان بشأن تسرب سر تصميم جديد للسيارات التي نسوّقها في الولايات المتحدة.»

قالت وهي تتحوّل مبتعدة عنه: «لقد فهمت.»

لقد فهمت من لهجته أنه غير مستعد لمناقشة شؤون عمله معها، ولم تجازف بتعريض نفسها إلى زجره في ما لو اتبعت غريزتها واستمرت في سؤاله عن أعماله تلك. ذلك أنه لم يكن هنالك دور لاهتماماتها كزوجة ضمن الدور الذي صممت على القيام به تجاه زوجها.

لِمَ لم تجد على بطاقة الثوب الهدية ذكراً للقياس، سألته: «كيف عرفت قياسي؟»

أجاب: «نظراً لضيق الوقت، اتصلت هاتفياً بك، ولما كنت غائبة طلبت من ماريا الخادمة أن ترى قياسك على ثيابك في خزانة ملابسك.»

حملت نفسها على الابتسام قائلة: «إنك ماهر.»

لكن الوسواس الذي يعذب نفسها لم يكن ليفارقها. وقالت: «إنه ثوب رائع. هل هو من محلات جينا؟»

كان ثمة تردد خفيف وهو ينظر إليها وقد ضاقت عيناه قائلاً: «في الحقيقة، إنه لكذلك، هل في ذلك أية مشكلة؟»

هزت كاتيا كتفيها قائلة: «ولماذا يكون في ذلك مشكلة؟»

أجاب: «المشكلة تكمن فقط في ما لو عرض أمام اللجنة مرفقاً به الثمن. ولكن يمكنك أن تطمئني إلى أن هذا لن يحدث، ذلك لأن طراز الثوب ليس مستحدثاً.»

قالت: «ما أشد مهارة جينا إذ عرفت ذوقي تماماً بينما هي لم ترني أبداً.» وشملت الثوب بنظرة إعجاب ولكن كانت النار تشتعل في داخلها. كيف يجرؤ على أن يطلب من خليلته اختيار ثوب لزوجته؟

رفع نيكولو حاجبه ببطء، وأدركت من لمعان عينيه خلف أهدابه السوداء أنه لم ينخدع بما أبدته من رضى زائف. فقال برقة: «إنني أنا الذي اخترت الثوب وليس جينا. الشيء الوحيد الذي فعلته جينا هو أنها اتصلت هاتفياً برئيس المستخدمين عندها وطلبت منه أن يعرض أمامي عدداً من الأثواب لأختار منها.»

أفلتت من كاتيا كلمات دون إرادة منها إذ قالت: «هل كان ذلك قبل أم بعد الاستمتاع بجلسة حب؟»

ورفعت يدها إلى عنقها فزعاً وكأنها تحميه وهي تراه يتقدم نحوها هادراً: «إياك أن تجعليني أسمع منك مثل هذا السؤال مرة أخرى. لقد علمت بهذا عندما وافقت على أن تكوني زوجتي. لقد قلت ذلك بلسانك أن تصرفاتي الخاصة خارج علاقتنا هي ليست من شأنك وبالنسبة إلى جينا، فإنك

www.elromancia.com

إذا لم يكن بإمكانك التحدث عنها باحترام فإنني لا أريدك أن تتحدثي عنها أبداً. هل هذا مفهوم؟»

للحظة مرعبة، ظنت أنه سيضربها حين انحنى عليها. واعترفت بينها وبين نفسها بأن التعقل هو حقاً أفضل من التهوّر.

قالت: «هذا حسن بالنسبة إليّ، ولكنك لن تستطيع أن توقف ألسنة الناس. لقد سمعت أن البندقية بأجمعها تتحدث عنكما أنتما الإثنين وعن علاقتكما المستمرة.» وتلافياً للخطر الذي بدا في نظرته إليها، حملت نفسها على تحويل الموضوع إلى حديث عادي إذ عادت تنظر بإعجاب إلى الثوب قائلة: «من الواضح أن ثمة حكايات كثيرة تدور حول رفيقة طفولتك هذه.»

قال: «إنني مسرور إذ أعجبك ذوقي.»

كان البرود في لهجته ينم عن الغضب الملتهب الذي زاد عينيه سواداً.

قالت: «نعم. إنه أعجبني.» وحملت الثوب باحتراس لتعلقه في الخزانة وهي تتابع قولها: «وإنني متأكدة من أن صديقتك تستحق مكافأة أن أقوم بالدعاية لمملكة الأزياء التي تملكها في الصحف، وأثناء الحديث والمشي وكل المناسبات.»

قال: «أنا متأكد من أنها تستحق ذلك، إذا أردت أن تنشري الحقيقة، ولكن موضوع الأمسية الرئيسي هو جمع المال للمشروع الخيري وليس نشر الدعاية لسلسلة من دور الأزياء منتشرة في إيطاليا وفرنسا.»

كان نفاد الصبر بادياً في جوابه هذا، وفي حركة فكه

المنقبض بشدة. وتساءلت هي: هل ابتدأت تكون مصدر إزعاج له أخيراً؟ وهل هو يظن حقاً بأنها شاكرة له هذه الفتات التي يلقيها إليها بينما هو يخدعها بذلك الشكل المشين؟

قالت له وهي تمنحه ابتسامة عريضة مستمرة في تمثيل دورها إلى أقصى حدٍ تستطيع: «ذلك سبب يستحق الاهتمام حقاً، وإنه ليسرني المساعدة فيه. بالطبع، عليّ أن أشتري حذاء وحقيبة يد للسهرة، وكذلك يحسن أن أصفف شعري للمناسبة إذ لا أحب أن أتسبب لك بازدراء الناس في ما لو بدوت أنا في الحفلة بمظهر غير لائق.»

كانت منتبهة إلى صمته خلفها أثناء تمضية الوقت في تسوية وتعليق ثوبها في الخزانة. واستدار هو ليواجهها بنظراته مفكراً، ثم قال: «ولا أنا أحب لك ذلك. ولكنْ ثمة شيئاً من الخطر في ذلك. في بداية تعارفنا، لم يكن يبدو أن لديك الكثير لتقدميه إلى رجل في مثل مركزي، ولكن لي نظرة خبيرة يا عزيزتي كاتيا نبهتني إلى أن وراء مظهرك الخامد ذاك، طاقات كامنة.»

اختفت لهثة الألم في حلقها وهو يمد يده يمسك ذقنها بأصابعه قائلاً: «على الرغم من ميلك إلى بيع نفسك في سبيل المال، فإن فيك صفات النبلاء الحقيقية، يا ماركيزة. إنك ستفتنين والديّ بمظهرك الخارجي على الأقل، ويشعران بالإعجاب وأنت تتهادين في كنيسة علية المجوهرات الذهبية أمام المدعوين المحتشدين في الكنيسة، لتصبحي زوجتي الذهبية شرعاً.»

ها قد سنحت لها الفرصة التي طالما انتظرتها، وشجعها

www.elromancia.com

شعور عميق بالثورة على مواجهته بينما ما زال دمها يغلي في عروقها من جراء الطريقة التسلطية التي عاملها بها. وصرخت في وجهه: «عليهم أن ينتظروا غرق البندقية في البحر قبل أن يأتي ذلك اليوم.»

دفعته عنها وهي تتابع: «ليس عندي رغبة في أن أعرض أمام الملأ للدعاية (لشركة كاشياتور لتصميم السيارات.) لقد سبق واتفقنا على ما يريده كل منا، ولا مجال بعد ذلك، لاحتفالات أخرى لا معنى لها.»

قال مقطباً جبينه: «إن هذا ليس من دون معنى، يا كاتيا.» وزاد عبوس وجهه في سرعة خفقان قلبها، بينما تابع هو قائلاً: «لقد كان عقد زواجنا في انكلترا الطمأنة جدك وتهدئة مخاوفه كي لا أغيّر عقلي عندما أخرج بك من تحت إشرافه وأسلب حفيدته كرامتها...» وبدت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يتابع: «مع أن الكرامة هي شيء نسبي، أليس كذلك؟ ربما خاف من أن اكتشف حقيقتك الكامنة وراء مظهرك البريء الذي تتسترين به. ومهما كانت أسبابه فقد كان ذلك العقد الزوجي مجرد إجراء رسمي وهذا لا يقبل به والداي وخصوصاً والدي الذي انتظر طويلاً ليرى ولده الوحيد متزوجاً، إنتظر سنين طويلة إذا كنت ما زلت تذكرين، فقد بقي دون أولاد إلى أن ماتت زوجته الأولى، وهو الآن في الثمانينات من عمره. ورجل له مثل ومفاهيم عصره، إذا لم يعقد زواجنا في الكنيسة فسيعتبرك خليلتي وليس زوجتي الشرعية.»

فهزت كتفيها غير موافقة، وقالت آملة أن تحمله على تغيير فكره من جهة اعتبارها سداداً للدين: «إن رأيهم لا

يهمني وليس ثمة طريقة تجعلني أقبل بأن أعرض نفسي أمام الناس في احتفال ديني وذلك برغم إرادتي.»

التهبت عيناه بالغضب وهو يقول: «أتتحدين إرادتي؟ أتفضلين أن تكوني خليلتي أمام أسرتي بدلاً من أن تكوني زوجتي؟»

قالت: «إنها مشكلتهم الخاصة وليست مشكلتي أنا. إنني أرفض أن أعيش في ظلام العصور الماضية.»

قال: «وماذا عن أولادك؟ هل ترضين بأن يعتبرهم والداي أبناء غير شرعيين؟» قال ذلك وصوته يهتز من الغضب.

اتسعت عيناها مصعوقة بما تسمع وتمتمت: «أولادي؟» إذ انها منذ ان اكتشفت غش نيكولو لها، تحصر تفكيرها في محاولة تخليص نفسها من هذا الزواج الخالي من الحب. أما فكرة أن يثمر هذا الزواج، فلم تكن تتقبلها. كما أنها لم تتخذ أية وسيلة لمنع الحمل. لقد أضافت هذه الفكرة إلى مشكلاتها تعقيداً جديداً لم يكن في اعتبارها.

قال نيكولو برقة: «بالطبع. لقد كانت رغبتي منذ اللحظة التي رأيتك فيها، أن تمتزج دماء أسرة كاشياتور بدماء أسرة لورنزو.» وتقدم نحوها وقد بانت الرغبة في ملامح وجهه المتسلطة وفي كل حركة من جسده، وهو يقول: «من المتعة سماعك تدلين بموافقتك في الكنيسة. وإذا كنت تظنين أن عدم تمكيني من تلقي بركة الكنيسة، يمنعني من الاستمتاع بما سبق واشتريته بنقودي، فإنك مخطئة جداً.»

استبد الذعر بكاتيا، وأمسكت بذراعيه تبعدهما في محاولة لإبقائه بعيداً عنها. إنها تريد حبه، وليس العلاقة

www.elromancia.com

الحميمة فقط. ولكن، يبدو أن ليس لها الخيار في ذلك. إذ أنه أوقف كل مقاومة لها وهو يعانقها، لتدرك أن لا حول لها أمامه.

في المخدع، لم يعد ثمة مجال لأي منطق...

عندما تركها دست رأسها بين الوسائد تسكب دموعاً صامتة لتمتصها الوسادة الحريرية. إنها لا تستطيع أن تلوم سوى نفسها. فلقد أصبحت في نظره مجرد خليلة، بل واحدة من خليلاته. لقد جعلها تتأكد من ذلك أثناء الوقت الذي رضيت فيه بالبقاء في إيطاليا في محاولة لاكتشاف طبيعة الدين المتعلق بالوفاء الذي يدين جدها له به.

الفصل الثامن

عزفت الموسيقى، لتتمايل عارضات الأزياء وهن يخطرن على أنغامها ذهاباً وإياباً، بينما جلست كاتيا صامتة، وقد مالت برأسها تتطلع بعيداً عن نيكولو الذي كان جالساً بقربها وسيماً رائع الرجولة. كانت يداها متشابكتين في حضنها وقد تسمرت عيناها على حركات العارضات، إنما غير ملقية بالاً إلى الأثواب التي يعرضنها. كانت تفكر في أنها لم تر زوجها كثيراً منذ مساء أمس. فقط، تبادلا كلاماً حول واجباتها كمضيفة أثناء الحفلة، وقد تجلى سخطه وجفاؤه مما كانت تبديه من الإزدراء لتعليماته، في كل حركة من جسمه. إنه لم يأت على ذكر تناوله العشاء مع جينا. وفكرت كاتيا في أنه لم يكن ثمة ما يمنعه من ذكر ذلك لو كان قصده بريئاً ولكنه بقي صامتاً بالنسبة للطريقة التي أمضى بها الوقت أثناء بعده عنها. ربما كانت حمايته لسمعة جينا أهم عنده من اعتبار وضعها هي كسيدة منزله.

كانا قد تناولا الغداء في شرفة الحديقة، حيث كان حديثهما المتبادل جافاً ومهذباً، ثم عاد نيكولو إلى مكتبه ولم تره بعد ذلك إلى أن وافاها إلى المخدع عند منتصف الليل.

وارتاحت هي عندما لم يبد محاولة للمسها. وبقيت مستيقظة مدة طويلة تستمع إلى تنفسه الخفيف المنتظم بجانبها، بينما كانت خفقات قلبها تتسارع وهي تفكر في

www.elromancia.com

الفردوس المزعوم الذي سعدت فيه زمناً في قريتها في انكلترا. وفكرت متسائلة، لو لم تكن سمعت ما قاله جدها لنيكولو في ذلك اليوم، هل يا ترى، كان نيكولو قد استمر في اظهار الحب لها؟ ولكنها أبعدت من ذهنها هذا الاحتمال.

فكرت كاتيا في أن جينا عندما تتحرر من زوجها، ستكون في متناول يدي نيكولو في أي وقت يشاء دون إثارة أية فضيحة تمس حبهما. وفي ذلك الحين، تكون حاجتهما إلى ستار يتواريان خلفه، قد انتفت، ويكون كل ما جنته هي، نتيجة ذلك التنصّت، مجرد صيانة شيء من كرامتها لا غير.

واسترسلت في تفكيرها وهي ساهرة إلى صباح هذا اليوم الذي فرغا فيه من تناول طعام الإفطار، كان الاستعداد للحفلة، في قاعة الرقص، قائماً على قدم وساق، حيث جهزت خشبة المسرح وممر العارضات بسهولة، وأحضر جيش من الخدم، الكراسي المنجدة بالقطيفة من مخازن في أقبية القصر. ووضعت الطاولات المستطيلة في أماكنها، لتوضع عليها الأغطية في ما بعد.

كان نيكولو يدلي بارشاداته، وهو يرتدي سروال الجينز وسترة قطنية، ولما لم يكن لها هي مكان بينهم، سرّها أن تجد لها عذراً لتخرج من القصر لشراء حذاء وحقيبة يد وتأخذ موعداً لتصفيف شعرها.

ولما لم تكن على عجلة من أمرها، فقد أخذت وجبة خفيفة في مطعم صغير حيث استمتعت بوجبة إيطالية لذيذة وكأنما أمضت حياتها كلها في هذه المدينة.

عندما عادت إلى القصر، كانت قد اشترت الحذاء والحقيبة وصففت شعرها بطريقة جميلة رفعته فيه إلى

أعلى وأمسك بما يشبه تاجاً ذهبياً فوق رأسها الأنيق. كل شيء كان جاهزاً. فقد وصلت عارضات الأزياء، طويلات القامة نحيفات الأجسام بارزات العظام ووجوههن من النوع المرغوب فيه أمام كاميرات التصوير.

كنّ متشابهات إلى درجة كبيرة، ما عدا واحدة، لتدرك كاتيا، بعد لحظة، ان هذه المستثناة إنما كانت جينا كابريني. واشتدت قبضتها على الكيس الذي يحتوي مشترياتها، ولعنت المناسبة التي جعلتها تلبس هذا السروال القطني والقميص الخفيف العاري الكمين فوقه. ذلك أن جينا كابريني كانت رائعة. كان ثوبها الليموني البسيط يضيف حجماً إلى صدرها الناهد بينما يبرز طوله الذي لا يتجاوز الركبتين، ساقيها الممتلئتين.

أحست كاتيا بنار الغيرة تلتهب في أعماقها. وتمنت لو كان في استطاعتها الزحف متخفية إلى السلم حيث تصعد إلى غرفتها فلا تقع عليها أنظار غريمتها وهي على هذه الحال من عدم الاستعداد للحفلة. ولكن الحظ كان مجانباً لها، إذ برز نيكولو من بين بعض العمال، ليأخذ بذراعها قائلاً: «ها قد جئت أخيراً يا كاتيا. لقد خشيت أن تكوني ضللت طريقك.»

لم يكن في لهجته قلق حقيقي وهو يبتسم لها ثم يتابع قوله: «وها انني أدرك من طراز شعرك الجميل، أين أمضيت معظم وقتك.»

قال وقد تصاعد في نفسها مركب النقص: «هل أعجبك طراز شعري؟»

قالت برقة: «إنني أفضله متناثراً على وسادتي. ولكنه،

بالنسبة للناس رائع تماماً. أما الآن فأريدك أن تقابلي جينا. أظنها قد ابتدأت تعتقد أنك احدى بنات خيالي.»

تساءلت كاتيا بحزن، وهو يقودها عبر القاعة، اتراها تعتقد أم ترجو؟

كانت جينا من قرب، ما تزال رائعة، بعينيها الواسعتين البنيتين تحت جفنيها السميكين وأهدابها الكثيفة. واندفعت تحييها بطريقة أظهرت ذكاءها وهي تمد إليها يدها بابتسامة من فمها الواسع الممتلىء، وهي تقول: «أظن أنني يجب أن اعتذر لإزعاجكما في شهر العسل. ولكن بطاقات الدعوة كانت قد أرسلت قبل أن يفاجئنا نيكولو بما فعل.» ووجهت جينا نظرة عتب إلى نيكولو لم تخف تماماً تكلفها وهي تدعي نوعاً من التعنيف.

كان كل ما استطاعت كاتيا التفوّه به وهي تضع يدها في يد المرأة الأخرى الباردة، هو قولها: «كلا، أبداً. في الحقيقة إنني بشوق لرؤية العرض. أظن انه يجب أن أشكرك للثوب الذي أحضره لي نيكولو من ميلانو عند عودته.»

قالت جينا بنعومة: «إنه ليس مني شخصياً. إنني فقط تدبّرت أن يختار نيكولو هديته بنفسه، إذ انني أعرفه منذ وقت طويل. وأنا متأكدة من أن ذوقه في ملابس النساء ممتاز. آمل أن لا تكوني أصبت بخيبة أمل؟»

تطوّع نيكولو بالجواب قائلاً: «طبعاً لم يكن هذا. وعندما ترينها هذه الليلة ستدركين السبب.»

هنا، اعتذرت كاتيا منهما لتصعد إلى غرفتها تاركة إياهما معاً بينما إقرار جينا بقدم علاقتها بنيكولو ما زال يتردد في أذنيها. هل كانت تقصد أن توضح علاقتها

بنيكولو؟ أم أنها شعرت بأن كاتيا قد يسوؤها أن تختار لها ثيابها امرأة أخرى؟

من الغريب أنه، في أي ظرف آخر، كانت كاتيا ترحب بأن تتلقى النصيحة من فتاة ايطالية، أم لعل كلمة «امرأة» هي الأصح؛ إذ أن جينا تبدو في سن نيكولو تقريباً، ومع ذلك، كانت، بشعرها الأسود القصير المجعد، وقوامها الليّن الممتلىء، لا تختلف عن أية فتاة مراهقة حتى يرى الناظر إليها الخطوط الخفيفة التي تبقى حول عينيها بعد أن تتلاشى ابتسامتها.

الآن، وهي في مكانها تراقب العرض الذي لا ينتهي لمختلف أنواع الملابس، عادت كاتيا بذاكرتها إلى بداية الأمسية حين وقفت بجانب نيكولو يستقبلان أعضاء اللجنة الضيوف. كان الأمر ما يشبه المحنة بالنسبة إليها حين وقفت أمام كل هذه الأعين الفاحصة ونيكولو يقدمها إليهم كزوجته. وينفرج وجهها عندما تعالت منهم أصوات الاستحسان وهتافات الاعجاب عند اعلانه ذاك. وما لبثت أن أحست بالارتياح وهي تتركهم لتأخذ أحد المقاعد المخملية وتجلس بجانب منصة العرض.

لقد اعترفت وهي تلامس قماش ثوبها، بأن رأي جينا في حسن ذوق نيكولو، كان صائباً، كان جميلاً إلى درجة مذهلة ويناسب قوامها تماماً. وقد ادركت، من نظرات النساء الحاسدة، ونظرات الرجال المعجبة، أن ذلك إنما كان نتيجة لروعة هذا الثوب التي لا تضاهى.

تصاعدت همهمات الاعجاب والاستحسان، عند عرض ما يبدو أنه الأجمل في ما يعرض، ألا وهو ثوب زفاف من

الساتان والدانتيل بلون العاج. وبدا وكأن قلب كاتيا سيتوقف عن الخفقان وهي ترفع يدها تتلمس قرطها الذهبي المتدلي من أذنها، وذلك في حركة مكشوفة لإخفاء توترها.

تم لنيكولو ما يريد، سيكون عليها أن ترتدي مثل هذا الثوب في وقت قريب... ولكن، كل جزء في داخلها ثار على هذه الفكرة. مهما كان نوع الضغط الذي سيزاوله نيكولو عليها ليحملها على الإذعان، في الأيام القليلة المقبلة، وهي متأكدة من أنه سيضاعف الضغط، فإنها ستبقى على تحديها له وهو لا يمكن أن يضربها ليحملها على الإذعان.

انتهى العرض، ليمط اعضاء اللجنة سيقانهم وينهضوا مبتهجين إلى المقصف. بينما ابتدأت السيدات يتبادلن الآراء في ما بينهن، بحماس، أما الرجال فابتدأوا يتطلعون، الواحد منهم إلى الآخر، عابسين وهم يدركون ما الذي ينتظرهم بالنسبة لحساباتهم في المصرف.

بينما كان نيكولو يهنىء جينا، اغتنمت كاتيا الفرصة لتنسل من جانبه متجهة نحو الموائد لتأخذ كأساً من العصير، ثم تبدأ بارتشافه.

وجاءها صوت لا يمكن أن تخطئه، يقول: «تهانيّ يا «سينورا» كاشياتور. إنك تبدين الليلة أشبه بملكة منك بماركيزة.»

حوّلت كاتيا وجهها إلى سيزار برونيللي بنظرة ازدراء وقد أقبل يقف في مواجهتها. وسألته: «أنت؟ مرة أخرى؟»

لم تحاول أن تخفي رنة الاشمئزاز في صوتها.

قال دون أن يبدو عليه التراجع أمام عدم رضاها عن

رؤيته: «إنني شخص مرغوب فيه، إذ ان كل هؤلاء الناس راغبون في أن يحصلوا على الشهرة التي أقدمها لهم.»

فقالت: «إذن، مبروك عليهم الشهرة، أما أنا وزوجي، فيمكننا الاستغناء عنها.»

قال: «آه.. أما زلت تمانعين في أن أنشر صورة زوجك مع جينا التي تمثلهما أمام بيتها؟»

هزت كاتيا كتفيها بازدراء، ولكن قلبها كان يخفق في صدرها وكأنما يريد أن يفلت من عقاله. ذلك أنه، بصرف النظر عما قام به نيكولو نحوها من عمل شائن، ليس من مصلحتهما، هما الإثنان، أن تنشر مثل هذه الصورة. إنها لم تكن ترغب في أن تعرض مذلتها على العموم. كما أن وضعها لن يتحسن في ما لو ازدادت طباع نيكولو سوءاً.

وقالت: «لا أظن أن أحداً سيهتم بصورة كهذه حتى ولو كانت صحيحة.»

قال وهو يمد يده إلى جيبه ليظهر برهاناً على قوله: «إنها طبعاً صحيحة.»

بنظرة مذعورة، تأكدت من صحة قوله. إذ على الرغم من حقيبة اليد المرفوعة لستر الوجه، كانت السيدة هي جينا حتماً، وكانت ذراع نيكولو حول كتفيها. فقالت: «إنهما صديقان قديمان.»

عجبت كيف حدث أن غلف الجليد قلبها؟ هل أدركها الشك في حقيقة مقابلتها؟

قالت: «لقد أخبرني نيكولو أنه قابلها لتجهيز مجموعة من الملابس لأجلي.»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ملتوية وهو يقول: «يا لهذا

التفسير. إنه سيعجب قرائي، كما يعجبني ثوبك هذا.»
وأخذت نظراته الحادة تتمعنان في تقاطيع جسدها، ليتابع قوله: «ثوب رائع لسيدة رائعة. إذا كان عرض نيكولو كاشياتور هو أن يحسن نسله المنحدر من أسرة عادية، لما وجد لأولاده أماً أفضل منك. ربما كنت فقط حفيدة لماركيز، ولكن دمك الأزرق هو واضح يا سنيورا.»

فالتهبت عيناها بالثورة وهي تقول: «كيف تجرؤ على مثل هذه الإهانة؟» لقد أصابتها معرفة الصحافي بدورها هذا، في الصميم. وتابعت: «إذا أنت لم تحفظ لسانك عن مثل هذه التلميحات الدنيئة، فسآمر بطردك من هنا سواء كنت مدعواً إلى الحفلة أم لا.»

«ماذا يجري هنا؟»

جاء صوت نيكولو البارد المتسلط من مكان ما خلفها وعضت كاتيا شفتها قهراً. كان آخر ما تريده هو عراك بين هذين الرجلين في مثل هذا المكان العام.

قالت بصوت هادىء: «لا شيء. لا شيء مهماً. لقد أسأت فهم شيء قاله السيد برونيللي فقط.»

تجهم وجه نيكولو وهو يمعن النظر في وجه الصحافي ثم قال: «برونيللي؛ آه، نعم الرجل الذي يحصل رزقه من الكتابة عن الشائعات. هل كنت تهين زوجتي؟» ومد يده حول خصر زوجته يجذبها نحوه وهو يتابع: «لأنك لو كنت...»

فنفى برونيللي الأمر بضحكة خافتة قائلاً: «طبعاً لا. إنني وزوجتك صديقان. أليس كذلك يا كاتيا؟»

نظر إليها ساخراً وهو يميل برأسه إلى جانب، ممعناً

النظر في وجهها الشاحب. وتابع يقول: «في الحقيقة، عليك أن تشكرني إذا التزمت مرافقتها أثناء غيابك، وإلا لما عرفت هذه الفتاة المسكينة ماذا تفعل بوقتها. ولحسن الحظ، كنت وحدي أنا أيضاً، فجئت لتسليتها ببعض الشائعات التي تكره أنت بذاءتها.»

«إنك تكذب؟» وشدّت يد نيكولو على خصر كاتيا بقسوة، بينما تلاشى كل أثر للمزاح على ملامح سيزار برونيللي.

همست: «نيكولو. أرجوك لقد ابتدأ البعض ينظرون إلينا.»

لقد أرادت أن تصرفه عن أي تحرش يمكن أن يقوم به نحو برونيللي، إذ لم يكن لديه أية فكرة عن الصورة الفوتوغرافية التي في جيب الصحافي. وما دامت هناك، فقد لا تنشر، ولكن، إذا أراد نيكولو أن يضرب الصحافي، وهو ما يبدو لها محتملاً، فقد فكرت في أن هذا الأخير قد يستمتع باحراجهم بها أمام الناس.

تراجع برونيللي خطوة إلى الوراء وقد ارتدت الابتسامة إلى وجهه وهو يقول: «هل تراني اكذب؟ هنالك مطعم قرب جسر الريالتو الذي يثبت لك النقيض. إنه لن يؤكد لك فقط أنني وزوجتك تناولنا الغداء معاً أمس، وإنما طلبت مني، ولا أقول إنها أصرت، على أن أدفع عنها ثمن غدائها.» وأدار وجهه الساخر نحو وجه كاتيا الساخر وهو يقول: «أصحيح أم لا؟ يا ماركيزة؟»

ترددت هي لحظة لا تدري كيف تجيب عن هذا السؤال. عند ذلك قال نيكولو بهدوء: «حسناً يا كاتيا، هل دفع هذا الرجل ثمن غدائك.»

www.elromancia.com

عضت هي على شفتها وقد بان الاحباط في وجهها وهي تقول: «نعم، ولكن ليس بهذا الشكل الذي يقوله...»

انغرزت أصابع نيكولو في خصرها بقسوة آلمتها وهو يقول لسيزار برونيللي معتذراً ببرود: «إذن، فأنا اعتذر عن نعتك بأنك كاذب. يبدو أن معك الحق في اتهامي بأنني أهمل زوجتي. وسأنتبه إلى أن لا يحصل هذا مرة أخرى.»

عندما استدار سيزار برونيللي مبتعداً، همست كاتيا وهي تضع يداً مرتعدة على ذراع زوجها وقد أحست بنذير شؤم إزاء ملامح زوجها المتجهمة: «نيكولو... يمكنني أن أشرح لك...»

قال وهو يزيح أصابعها عن ذراعه: «طبعاً ستشرحين لي كل شيء ولكن، يبدو أنك بحاجة إلى مزيد من التبصر والانتباه، ويسرني أن أعلمك هذا ولكن ليس أمام هؤلاء الغرباء.»

ابتعد تاركاً أياها وحدها، يتفاعل في نفسها الغضب واليأس. وتكلفت ابتسامة عدم اكتراث إزاء بعض الأنظار التي كانت تحدق فيها، ثم تهادت برشاقة نحو نادل آخر لتبدل كأس الشراب الفارغ في يدها بآخر ملآن.

إنها، على الأقل، إذا كان نيكولو سيحاسبها تلك الليلة، فإنها ستجعله يخبرها بالحقيقة، كل الحقيقة: وشعرت بالدم يجري حاراً في عروقها، وتضرّج وجهها وهي تستعيد تلميح سيزار برونيللي إلى أن نيكولو قد تزوجها فقط لإضافة نوع مختلف من الدم إلى ذريته.

اعتصر الألم قلبها وهي تتذكر حادثة أثناء ليلة حفلة النقابة في قريتها في انكلترا، وكان نيكولو يتحدث معها

عن خطته لشراء حصان للسباق. وضحكت هي لقلة معلوماته بالنسبة إلى سلالات الدم. ما زال يمكنها سماع صوته في أذنها، وكأنما كان ذلك أمس فقط، وهو يقول: «بخلاف ذلك، لقد علمني ريتشارد أشياء كثيرة، أكثر مما تظنين، مثلاً، إنني أعرف جيداً أن تربية المهر هي مسألة حيوية في تقرير نوعية سلالته.»

كان ذلك برهاناً آخر على أن سيزار برونيللي قد أصاب في فهمه لدورها في خطة نيكولو بزواجه منها. النبلاء، خصوصاً الغافلون منهم عن أصلهم النبيل، يمكنهم أن يكونوا ألعوبة في يد أي رجل ماهر وذي امكانيات مادية. ولا بد لهذا النبيل من أن يكون فقيراً معدماً. وشعرت بالمرارة حين وصل بها التفكير إلى هذا الحد، وما لبث أن تملكها نوع من الدوار جعلها تتمسك بأقرب عمود. وعضت على شفتها... ماذا لو كانت حاملاً؟ إن حدثاً كهذا كفيل بأن يقلب خططها للخلاص من ورطتها هذه، رأساً على عقب.

في هذه الحال لن يكون أمامها طريق يمكنها أن تسلكه، إلا أن تبقى حيث هي، محاولة أن تتصرف حسب المفاهيم المعترف بها، بينما حياتها حولها تتحول إلى أشلاء.

تنفست بعمق تستجمع بذلك شتات نفسها ثم استطاعت، بصعوبة، أن تجد طريقها إلى الحديقة حيث لجأت إلى الشرفة الخفيفة الإضاءة. وفكرت، في ما بعد عندما يكتفي المدعوون من الطعام والشراب، لا بد أن ينتشروا في الحديقة ويحتلوا البقعة التي استحوذت عليها لنفسها. ولكنها، في هذه اللحظة، كانت تجلس وحدها.

حالما جلست على المقعد الحجري، انتبهت إلى أنها

www.elromancia.com

كانت مخطئة، وأنها لم تكن وحدها. إذ نهض شخص من على الأرجوحة هناك، ومن ثم تقدم نحوها.

كانت جينا كابريني وهي آخر شخص، باستثناء برونيللي، تمنت كاتيا رؤيته. ولكن، كان هناك شيء ما، في وجه جينا، كان في عينيها نظرة توتر وإرهاق لا يمكن احتمالها، مما مس شغاف قلب كاتيا الرقيق.

كانت جينا ترتدي رداءً عاري الكتفين من الساتان، يذكّر طرازه بالامبراطورة جوزفين، ولكن جمال جينا لم يحول الألم في قلب كاتيا إلى غيرة.

ووقفت جينا مستندة إلى حاجز الشرفة وهي تنظر إلى القناة قائلة: «لا بد أنك مثلي، وقد تضايقت من كل تلك الجموع.»

تكلمت كاتيا من بين شفتيها الجافتين: «قليلاً.. ولكنها كانت أمسية ممتعة.»

قالت جينا وهي تترنح قليلاً، ثم تتمسك بحافة الحاجز: «نعم...»

هبت كاتيا واقفة وهي ترى شحوب وجه المرأة وقالت لها: «تعالي هنا. إجلسي.»

قالت جينا: «ليس بي من شيء...» وحاولت الابتسام ولكنّ شفتيها المتوترتين لم تطاوعاها، وما لبثت ان امتثلت إلى طلب كاتيا، فجلست على المقعد قائلة: «لا بد أن ذلك نتيجة الإثارة الشديدة...» ولكن صوتها تلاشى وهي تدفن رأسها بين يديها.

في هذه اللحظة، أدركت كاتيا الأمر. لقد جاءها، فجأة إلهام خفي قادها إلى استنتاج مفاجيء من خلال الثوب

الذي كانت جينا ترتديه. الانتقال من الثوب البسيط، هذا الصباح، إلى الرداء الملوكي الآن الذي يخفي خصرها.

سألتها كاتيا برقة: «أهو الحمل؟» ورفعت جينا إليها عينيها الواسعتين البنيتين وبدت من ملامحها صحة تنبئها.

قالت جينا: «هل أخبرك نيكولو بذلك؟»

سألتها كاتيا بصعوبة وقد تجمد دمها: «هل طلبت منه أن لا يخبرني؟» فسارعت هذه قائلة: «كلا، كلا... كان رأيي هو أن يخبرك.» واذ تقبضت أصابع جينا بقوة جعل لون أصابعها الأبيض، بعد أن توقف فيها سريان الدم، يلمع في الضوء الخفيف الذي ينير الشرفة. وتابعت كلامها: «لقد رأيت شخصاً يأخذ لنا صورة بينما كنا أمام منزلي. وأنا أيضاً متأكدة من أن ثمة من كان يراقبنا أثناء تناولنا الطعام في المطعم. لقد أردت أن تعرفي الحقيقة، فيما لو نشرت صحيفة ما، شيئاً عنا. إذ انني، منذ تركت زوجي، أصبحت هدفاً لمخبري الصحف. لقد أراد نيكولو أن يبقي الأمر سراً إلى أن يتدبّر المسألة، ولكنني مسرورة لأنه غير رأيه وأخبرك.»

سألت كاتيا بهدوء: «ماذا عرض أن يفعل بالضبط؟»

تساءلت هل من الممكن أن تكون هي هي نفسها إذ تتحدث إلى عشيقة زوجها بهذا الهدوء؛ وإلى متى يدوم هذا الهدوء غير الطبيعي، وماذا ستفعل إذا هو تلاشى؟

قالت جينا: «كان يريد أن يتحدث إلى زوجي جوزيب ليخبره بكل شيء.»

أطلقت ضحكة مرتجفة ثم استطردت: «إنه أمر يدعو إلى

www.elromancia.com

السخرية. أليس كذلك؟ لقد امضى جوزيب كل تلك الشهور يحاول أن يدفعني إلى الاقرار باسم عشيقي وذلك لكي يطلقني بعد أن يشهر به ويحقره أمام الملأ. والآن، لن تمضي أسابيع قليلة قبل أن يكتشف الجميع إمارات الحمل عندي.»

إنه ابن نيكولو. لقد كانت جينا كابريني تحمل ابن نيكولو... هل هذا هو الدم النبيل الذي كان نيكولو يرغب لولده، وماذا سيحدث الآن؟ من الواضح أنه لن يعترف بابن جينا ولداً شرعياً له، حيث أنه طلب بوضوح، في الليلة السابقة، تثبيت زواجه منها هي.

ازداد الألم في نفس كاتيا. إنها علاقة غير شرعية، ولكن وجود الطفل سيجعلها طويلة مستديمة.

قالت كاتيا: «أظن أن طلاقك أصبح الآن أمراً لا مفر منه؟»

لقد جازفت بإلقاء هذا السؤال مستطلعة، وهي تتمنى لو كان بإمكانها أن تكره هذه المرأة ولكنها، ولاستغرابها الشديد، وجدت في نفسها استحالة ذلك. لقد أدركت من إمارات اليأس على وجهها أنهما لم يفكرا أبداً في إنجاب طفل.

هزت جينا برأسها قائلة: «لقد كان جوزيب دوماً يريد أطفالاً. وهو سيرحب بي إذا أنا عدت إليه، هذا إذا لم يكن بذراعين مفتوحتين. وإن كان لم يعد يهتم بي مثل قبل، فإننا ما زلنا زوجاً وزوجة.»

لم يكن هذا هو الجواب الذي كانت كاتيا تنتظره. وفكرت للحظة قبل أن تسألها دون أن تتمكن من إخفاء دهشتها: «إنك تريدين أن تعودي إلى زوجك، أليس كذلك؟»

أجابت جينا بجمود: «ألا تفعلين أنت ذلك لو كنت في مكاني؟ ما الذي أستطيع عمله غير هذا ما دمت أريد لولدي أن ينشأ بين والدين؟»

نهضت واقفة باحتراس وهي تستطرد وعلى وجهها إبتسامة واهنة: «أرجو المعذرة للتحدث معك عن مشكلاتي. لقد وقف نيكولو بجانبي عندما أخبرته بأنني حامل. وفي الحقيقة لا أدري ما الذي كنت سأفعله لولا مساعدته لي.»

وأخذت تسوي من ثوبها، وفي لحظة واحدة، تجلى الحمل عندها واضحاً في تكوّر بطنها، وفكرت كاتيا مكتئبة في أنها لا بد في الشهر السادس من الحمل، إنه إذن لم يقع حديثاً. ولا بد أن نيكولو عرف بأمره قبل قدومه إلى انكلترا بوقت طويل للتفتيش عن الماركيز الغامض وحفيدته. وعجبت من صفاقته الساخرة وعدم إحساسه. وأدركها الخوف. يبدو أن لا شيء يمكن أن يردعه عن تحقيق مقاصده.

لكن ماذا عن جوزيب كابريني زوج جينا؟ وكيف يقبل بابن نيكولو إبناً له؟ كما بدت جينا متأكدة من أنه سيفعل؟ هل ذلك تجنباً للفضيحة؟ لكي يعلن للملأ أنه ليس عنيناً؟ من يعلم إلى أي مدى تقود الخيلاء، الرجل؟ أم أن الأمر، ببساطة هو أنه إذا هو فضح الأمر فإنه سيخسر عمله في شركة كاشياتور لتصميم السيارات؟

إن مجابهة نيكولو بالتحدي لن تنتج سوى هدم فكرته عن عدم اكتراثها بأمره، هذه الفكرة التي بذلت جهداً شاقاً في سبيل تثبيتها في ذهنه. ولكن وضعها في منزله يتدنى ساعة بعد ساعة، إلى حد لم يعد يحتمل. وإن ظهور خيانة

www.elromancia.com

نيكولو لم تنتج سوى تخدير حبها له على أساس مؤقت، تماماً كالحقنة التي يعطيها طبيب الأسنان والتي تعطي راحة مؤقتة. والآن، من دون علاج قد امّحى تأثير المخدر لتظهر الحقيقة المؤلمة. وبرغم كل هذه الأسباب فإنها ما زالت في أعماقها تعشق الرجل الذي تزوجت منه، ولو أنه فقط تزوج منها لأسباب تتعلق بأعماله لبقيت معه وحاولت أن تجعل من اتحادهما زواجاً ناجحاً، حتى ولو تضمن مثل هذا الزواج رغبته في مزج دمائه بدماء أسرة لورنزو رغبة في محو أخطاء الماضي. لو كان الأمر كذلك، لكان في استطاعتها احتماله. لقد كانت حمقاء حقاً، إذ على الرغم من الوضع الذي كانت قد قررت اتباعه، فقد كان يمكن أن تتألم من وجود جينا في حياة نيكولو لبضعة أسابيع أخرى، ولتكن شهوراً، آملة في أن هذه العلاقة ستنتهي بعد مدة. ولكن جينا هي حامل الآن... كلا، إن هذا فوق قدرتها على الاحتمال.

لم يعد أمامها سوى خيار واحد، وهو أن تتركه عائدة إلى انكلترا. ولكن، قبل ذلك عليها أن تتخذ خطوات سريعة لتزداد معرفة بالظروف الماضية التي جعلت جدها عرضة للتخويف. وعضت على شفتها السفلى وهي تمحص المسألة. لقد كان جدها رجلاً مسناً بحيث لم يكن في استطاعته مقاومة طريقة نيكولو في تخويفه.

هكذا جاءها الجواب الذي تبغي ولم يكن مما يسر. إن كل معلوماتها جاءت من سيزار برونيللي. وبتدخله الخاص، استطاع أن يتتبع آثار وارث لقب كاستيلون. وما زالت البطاقة التي تحمل اسمه وأرقام هاتفه موجودة حيث كانت

قد دستها في غمرة غضبها في جيب حقيبة يدها الخارجي. بعد أن منعها إحساس غامض من أن لا تدوسها بكعب حذائها وهي تخرج من ذلك المطعم.

على الرغم من كراهيتها لما ستقوم به، لم يكن أمامها سوى أن تبتلع كبرياءها لتطلب من ذلك الشخص الذي يضايقها أن يحيطها علماً بكل شيء، آملة في أن تجد علاقة بين الماضي ومعضلتها الحالية.

www.elromancia.com

الفصل التاسع

لم تعرف كاتيا كيف أمضت الوقت قبل أن تنتهي الحفلة وتتنهد الصعداء وهي ترى آخر زورق يحمل الضيوف يفارق القصر.

عند عودتها إلى قاعة الرقص، شعرت بالارتياح إذ لم تجد أثراً لنيكولو. ربما كان يعطي الإرشادات اللازمة للخدم لإعادة تنظيم القاعة بحيث تنتهي العملية في الساعات الأولى للصباح، أو ربما كان مع جينا يخططان مستقبلهما بالنسبة إلى قرب إعادة علاقتها مع زوجها.

اعتصرت قلب كاتيا موجة من الغيرة توازي الغضب من ردة الفعل عندها إزاء الإذلال الذي تعرضت له من جراء خيانة نيكولو لها.

اجتازت قاعة الرقص الخالية لتصعد السلم الأنيق. وعلى عتبة غرفة الجلوس، توقفت وقد ارتجفت يدها الممسكة بقبضة الباب. ماذا لو كانت افتراضاتها عن مكان نيكولو حالياً، خاطئة، وكان هو موجوداً في انتظار وصولها؟ ولم تشعر برغبة في العراك أو الجدل، ناهيك عن القيام بدور الزوجة المطيعة فيما لو طلب ذلك منها.

أطبقت فكيها بعزم، وفتحت الباب، وإذ وجدت الغرفة خالية، تنهدت بارتياح وبسرعة توجهت إلى حيث علقت ثوبها الجميل باحتراس في خزانة ثيابها، ثم اغتسلت بسرعة وارتدت ثياب منامتها الجميلة التي كانت تؤخذ إلى الغسل كل صباح.

ألقت برأسها فوق وسادتها الحريرية وهي تشعر بالإرهاق الشديد الناتج عن اليأس. وكان آخر ما راودها من أفكار قبل أن تستسلم للنوم هو ان نيكولو لو كان الآن مع جينا فإنها لن تخشى ازعاجه لها عند عودته ليرقد بجانبها.

أيقظتها خيوط أشعة شمس الصباح على وجهها، متسربة من خلال الستائر من صنع البندقية، لتلاحظ في الحال أن السرير إلى جانبها لم يستعمل قط. إذن فقد أمضى نيكولو طيلة الليل إلى جانب حبيبته أم ولده القادم. وأنبأتها الساعة الموجودة بجانب السرير بأن الوقت هو الثامنة والنصف صباحاً. ونزلت من السرير شاعرة بالدهشة للنشاط الذي بعثه في جسدها نوم ليلة بطولها، ثم دخلت الحمام لتغتسل وترتدي بما أمكنها من السرعة ثياباً تناسب الجو، مؤلفة من تنورة قطنية اختلط فيها اللونان البرتقالي والفيروزي وفوقها قميص فيروزي اللون دون كمين.

لفحت الحرارة ذراعيها العاريتين وهي تخرج إلى الشرفة حيث كان فطورها موضوعاً على طاولة هناك كما جرت العادة في غياب نيكولو. كان هناك مقعدان. ولكن، إلى حين انتهائها من طعام الفطور المكوّن من الخبز الساخن والفاكهة المحفوظة والذي أحضرته إليها ماريا، إلى ذلك الحين، لم يكن قد ظهر لنيكولو أثر بعد. كانت تتوقع من ماريا أن تسألها عن مكانه، ولكن لدهشتها لم تنطق ماريا بشيء. وخمنت انها إذ تتبادل الأحاديث مع غيرها من الخدم، لا بد أن عندها فكرة وافية عن المكان الذي يمضي

www.elromancia.com

فيه سيد القصر أوقات لهوه دون أن يزعجه واقع الزواج الذي لم يغيّر من عاداته.

كان الحظ في خدمتها. فلقد ازداد تصميمها على الاتصال بسيزار برونيللي، ذلك أنها كانت في حيرة من الطريقة التي تستطيع معها مغادرة القصر دون أن تثير ريبة نيكولو. ولكن، ها هي ذي المشكلة قد حلت.

عندما أنهت كوب القهوة الثاني، ابتسمت للخادمة إذ سألتها إن كانت ترغب في أية خدمة أخرى.

شكرت كاتيا الفتاة لتبعد الكرسي وتقف برشاقة طبيعية وهي تقول: «سأذهب لأنفق شيئاً من النقود التي يحصلها زوجي بعرق جبينه. إن خزانة ملابسي بحاجة إلى إضافة بعض الأثواب الحديثة الطراز، وقد اقترح نيكولو أن أبدأ بشراء بعض منها حالياً.»

بعد أن أومأت الفتاة برأسها متفهمة ما سمعت تركت كاتيا الشرفة. ولم تجد في نفسها ميلاً إلى ترك ملاحظة لزوجها الشارد. ولكنه، على الأقل سيتلقى جواباً من الخادمة ماريا في ما لو عاد وسأل عنها، وإن كان من المحتمل أن لا يعجبه الجواب.

كانت غرفة الجلوس ما تزال خالية حين دخلتها متجهة إلى الهاتف المزخرف بالذهب. وأدارت الرقم لتسمع صوت سيزار برونيللي المألوف قائلاً: «آه، يا ماركيزة!» كان في صوته رنة فوز وهو يسمعها تذكر له اسمها، كما ذكر لها اسمه. واستطرد قائلاً: «هل قررت أخيراً، بأنني قد أستطيع تقديم مساعدة لك؟»

قالت بجمود: «أحب أن أعرف المزيد عن تاريخ أسرتي.»

لقد كرهت الإذلال الذي اضطرت إليه أمامه، ولكنها لم تكن تستطيع منع ذلك. واستطردت: «لقد سبق وأخبرتني انك تابعت مع المحامي البحث عن جدي.»

فجاءها الجواب: «الآن وقد وجدت الوقت لتسأليني عن ماضي جدك، يسرني بالتأكيد أن أخبرك عن كل شيء أعرفه. لقد كنت، منذ لحظات متوجهاً إلى موعد ومن ثم لأمضي النهار في الليدو. سأراك في البار في الاكسلسيور الساعة الحادية عشرة. واحضري معك المايوه البيكيني حيث ان هناك مسبحاً خاصاً. إلى اللقاء.»

قبل أن تجيبه بالموافقة، أقفل هو الهاتف. لقد طلبت هي منه ذلك، فهل كانت على صواب في عملها هذا؟ ووضعت زجاجة تحوي محلولاً واقياً من أشعة الشمس، وبعض المناديل الورقية وكيس النقود، بينما رفضت اقتراح الصحافي بأن تصحب معها المايوه البكيني، بالازدراء الذي يستحق.

على كل حال، ربما لم يكن الموعد في الليدو بالفكرة السيئة، فكرت في هذا وهي تشعر بارتفاع معنوياتها إذ تخرج من القصر من دون أن يلحظها أحد. ولا بد أن يكون ذلك المكان مزدحماً بالسيّاح والبنادقة مما يمكنها من الاختلاط بهم دون أن يلحظها أحد ودون أن يساورها الخوف من أن ينقض عليها نيكولو من حيث لا تعلم.

عندما وصلت، كان برونيللي في انتظارها. وحيث انها استقلت عبارة القناة البخارية حال خروجها من القصر، فقد وصلت مبكرة، بعد ربع الساعة التي استغرقتها الرحلة، فأمضت بعض الوقت في التفرج على بعض السيّاح يلعبون

www.elromancia.com

كرة المضرب، ومن ثم اتخذت طريقها إلى «الاكسلسيور.»

هتف سيزار برونيللي متصنعاً خيبة الأمل وهو يرى حقيبة اليد الصغيرة التي تحملها، قائلاً: «ألم تحضري المايوه البيكني؟ لقد كنت متشوقاً إلى أن أرى مزيداً من الفتنة التي سلبت لب نيكولو كاشياتور.»

سألته ببرود: «حقاً؟ ظننت انك قلت مرة أن عيني زوجي سبق وارتبطت في مكان آخر.»

تساءلت، هل تراه يعلم بحمل جينا؟ وأعدت نفسها لتفاصيل أخرى تحمل الإذلال لها، ولكن لا شيء حدث.

قال وهو ينهي طعامه، ثم يستدعي رجل البار بإشارة من أصابعه: «هل تشعرين بالغيرة؟ على كل حال، من ذا الذي يلومك؟ ماذا تشربين يا ماركيزة؟»

قالت وقد تضرّج وجهها: «إن لقاءنا هذا ليس مناسبة اجتماعية، وأفضل أن تخاطبني بإسم كاتيا.»

قال: «هذا يشرفني يا كاتيا. ولكنني هنا بناءً على طلبك، وإذا أردت أن نبحث في أي عمل، فليكن على طريقتي الخاصة فنتناول شراباً في البار ثم بعد ذلك الغداء ولقد حجزت مائدة لذلك.»

قالت وقد تمثل لها وجه نيكولو الثائر: «عليّ أن أعود إلى المدينة.»

قال: «إذن نسرع بتناول الطعام.» وأخذ بذراعها يقودها نحو غرفة الطعام وهو يتابع قائلاً: «لا أدري لماذا تتمنعين. إنها ليست المرة الأولى التي دفعت فيها ثمن طعامك، أليس كذلك؟»

تركته يقودها إلى المائدة دون أن تتفوّه بكلمة. وهي

تفكر بألم في أن هذا الرجل قد يسيء إلى نيكولو وشركته، إذا هي عارضته، وهذا ما لم تكن تريده.

لم يوافق برونيللي على الإجابة عن اسئلتها إلا بعد أن فرغا من الطعام.

بذهول كلي، أخذت كاتيا تستمع إلى حكايات عن الثأر والثأر المضاد حين أخذ الصحافي يروي تاريخ أسرتي لورنزو وكاشياتور، شارحاً التفاصيل التي عرفها اثناء التفتيش عن وارث لقب الماركيز. إنها حكايات أعماق الجنوب الإيطالي، عن الصراع على الأرض بين أسرة كاشياتور الذين كانوا مزارعين، وليوبولدو دي كاستيلون الذي كان المالك المحلي. كانت قصة هتك الحرمات والقسوة والفقر التي أفزعتها. لقد سبق لنيكولو أن حدثها عن قسوة الماركيز الأكبر، ولكنه لم يحدثها عن فظائعه. ولكن سيزار برونيللي كان يبدو عليه السرور وهو يصور لها بالتفصيل تلك الأعمال الآثمة الشنيعة التي كان يقترفها جدها الماركيز.

كان قد سبق واقتنعت بأن تصرفات نيكولو إنما كانت للأخذ بالثأر، إن لم يكن منها شخصياً فمن ذكرى الشخص الذي أساء معاملة أسرته. وشملتها رجفة وهي تستعيد في ذهنها، صورة وجه زوجها القاسي المتكبر، والطريقة التي خدعها بها. لقد تأكدت الآن أن نيكولو يمكن أن يفعل أي شيء في سبيل الانتقام للذين أحبهم.

قال سيزار: «يبدو عليك الشحوب يا كاتيا. هل أضرت الشمس الحامية ببشرتك الانكليزية الرقيقة؟»

هزت هي رأسها بضعف قائلة: «ليس في الاستماع إلى

www.elromancia.com

هذا السرد عن الآثام والفظائع، ما يبعث على السرور، كما ينبغي أن تعلم.»

قال: «خصوصاً عندما تعجبين لتصرفات زوجك...»

ولوى شفتيه ثم استطرد: «لقد انتشر خبر العثور على مكان جدك بعد اسبوعين من ذلك ليتوجه نيكولو كاشياتور إلى انكلترا في رحلة عمل، ظاهرياً، أليس من الغريب، حينذاك، أن يذهب لزيارة عدوهم القديم؟ والأغرب من ذلك أنه بعد أسابيع من مقابلته لحفيدته أدهش المجتمع في البندقية بنبأ خطبته لتلك الحفيدة.» وانخفض صوت سيزار وهو يقول: «كيف استطاع ذلك يا كاتيا؟ أي ضغط زاوله عليك وعلى الرجل العجوز؟ أم لعله أخبرك ببساطة، انه وقع في غرامك من أول نظرة؟ فصدقته أنت؟»

اتسعت عيناها الزرقاوان في وجهها الشاحب تعترفان بالحقيقة، وللحظة ظنت أنها رأت لمحة عطف في نظرات برونيللي.

نظر إليها مفكراً ثم قال: «إذن فالأمر كما افترضت. إنه لم يخدع زوجة كابريني فقط، بل خدعك أنت وجدك...»

لا بد أن تعابير وجهها قد فضحتها مرة أخرى، أم لعلها غريزة الصحافي؟ وتابع هو قائلاً: «هل علم جدك بما حدث؟»

لم تكن تعاستها لتحملها على التبصر قبل أن تنفجر بالقول بلهجة حوت كل تعاستها تلك: «أعتقد أن زو...» واختنقت كلمة (زوجي) في حلقها فتجاوزتها قائلة: «إن نيكولو استعمل بعض الوسائل لأقناع جدي بالموافقة. دين يتعلق بالوفاء أو شيء من هذا القبيل. وقد ظننت انك ربما...» وبترت كلامها لتلوذ بالصمت.

نظر إليها الصحافي مفكراً وهو يقول: «دين يتعلق بالوفاء؟ ربما. إذ كما تعلمين قد ترك جدك إيطاليا بسرعة بعد ذلك الحادث الذي أودى بحياة والديك، وذلك ليستقر في انكلترا. وعلى حد علمي، لم يكن أبداً بالرجل الغني. ولا بد أن الانتقال من وطنه كلفه كثيراً. هنالك بعض الشواهد على اتصال كان بينه وبين باولو كاشياتور، والد زوجك، وكان وضع وأحوال تلك الأسرة، لورنزو، قد تغيّر في ذلك الحين بالطبع، فابتدأوا بالإقتراض لينجزوا أعمالهم، وربما أقرض باولو كاشياتور، جدك انطونيو لورنزو بعض المال ليساعده على السفر، وهو يعلم أنه لن يستطيع رده مع الفوائد المستحقة، ولكنه كان يعلم جيداً أن عنده حفيدة قد تكون، عندما يحين الوقت، مناسبة كرد للدين باعتبار اسمها النبيل.»

هتفت كاتيا محتجة: «هذا غير معقول: «ولكنها، بينها وبين نفسها، وجدت هذا التفسير منطقياً ومتلائماً مع الحقائق التي عرفتها. كم كان جدها يشعر باليأس لأجلها، حين أخذها إلى كنفه، إلى حد اضطر معه للإقامة مع عمتها بيكي. والأسوأ من ذلك أنه كان يعلم أنه لن يستطيع أبداً أن يرد الدين إلى عدوهم القديم. وهكذا غيّر اسمه ليتجنب ملاحقة القضاء. وفجأة، إتضح أمام كاتيا كل شيء... معارضته في أن تتعلم هي اللغة الإيطالية ورفضه العودة إلى إيطاليا، كراهيته الظاهرة لأبناء شعبه. ثم ما لبث قدره أن أوقعه في الفخ... وكان أن دفعت هي دينه، من قلبها وروحها وجسدها.

نظر سيزار برونيللي إليها بفضول قائلاً: «أهذا هو ما كنت تودين سماعه؟»

www.elromancia.com

قالت: «نعم. إنه يكفي.» وأدارت وجهها عنه كي لا يرى دموعها المتجمعة في عينيها، وقد خنقتها الغصة. لقد غدر بها الرجلان اللذان أحبتهما في حياتها أكثر من أي شيء آخر. ولكن، مع كل هذا دفعتها بقايا من حب لنيكولو إلى أن تحاول حمايته من التلطخ بالأقذار، لتقول للصحافي: «ولكن كل هذا مجرد افتراضات وظنون، وإذا أنت حاولت أن تنشر شيئاً من ذلك فسأنكر أنا كل كلمة.»

قال: «إنني معجب بولائك هذا لزوجك. كذلك من الصعب أن تستطيع امرأة متزوجة حديثاً، معاملة منافسة مثل جينا كابريني بمثل رباطة جأشك هذه. وإذا أردت الثأر الآن، فهذا هو الوقت المناسب لذلك.»

وقفت بكبرياء وهي تحاول إخفاء دموعها بقولها: «ثمة الكثير مثل هذه الأشياء. وإذا شئت أن تعلم، ليس ثمة شيء بين زوجي وبين جينا كابريني. وأنا أعلم، حقيقة أنها وزوجها يتفاوضان للمصالحة في ما بينهما.»

قال وعيناه تتألقان: «سأنقل عنك هذا الكلام.»

قالت: «ولماذا لا تتحقق منه أولاً من جينا كابريني نفسها؟ أليس هذا ما تدعونه (سبقاً صحافياً؟) أليس هذا أفضل نتيجة لك من أن تنشر صورتها الفاضحة مع زوجي أمام بيتها؟»

استدارت مبتعدة وقد تأكدت من أنها أنقذت شركة زوجها من الإحراج، ساخرة من نفسها لعدم قدرتها على استئصال آخر جذور حبها لنيكولو من قلبها. ذلك الحب الذي غرست بذوره ونمت أثناء الأيام الهادئة المطمئنة في انكلترا.

أمضت كاتيا رحلة العودة القصيرة في العبارة البخارية

للقناة الكبيرة، مستمتعة بجمال القناة الرائع. وحدثت نفسها في أنه لو صحت استنتاجاتها عليها أن تحترم هي دين جدها أيضاً مهما كان قدره. وعلى كل حال، فقد كان مال جدها هو الذي أنشأها وأمكنها من أن تتعلم مهنة العلاج الطبيعي. إن كل إمكانياتها يمكن أن تأتي بنتيجة طيبة يمكنها معها سداد دين جدها عليها هي من حب ورعاية. وعضت على شفتها مفكرة. ربما كان الحل لكل هذا هو أن تجد وظيفة في مستشفى قريب من قريتها ساديغهام في انكلترا مما يمكنها من أن تعيش مع جدها وعمتها بيكي وبهذا تتمكن من عدم صرف نقودها من جراء الحياة في لندن. وتساعد جدها في تجميع المال اللازم لوفاء الدين لأسرة كاشياتور وذلك يوماً فيوماً ولو أمضت حياتها كلها في ذلك.

لم يكن من السهل عليها مواجهة جدها، ولكن عندما تحدثه عن كل الحقائق والأحداث، سيقتنع حتماً بأن وضعها هذا من غير الممكن احتماله.

أخذت أثناء اختراقها الشوارع الضيقة في طريقها إلى القصر، تفكر في كل هذه الأمور. وبرغم هذه التصورات التي حاولت فيها تجاهل دور نيكولو في الأمر، فإنها كانت واثقة من أنه لن يدعها تذهب، بملء إرادته. إنها «حصته» وقد أظهر بجلاء مبلغ عزمه على مداومة الاستمتاع «بحصته» تلك. ولهذا يجب أن تخطط بحذر كافٍ، لهجره. وهذا يعني أن عليها تحيّن الفرص إلى أن يغيب ذات يوم كما غاب هذا الصباح.

كان القصر هادئاً في عصر هذا النهار بينما هي تسلك

www.elromancia.com

طريقها عبر الحديقة وهي تتنهد بارتياح لدى رؤيتها له خالياً. إن ما هي بحاجة إليه الآن هو أن تجلس في غرفة الاستقبال المكيفة الهواء في شقتها، ثم تبدأ بوضع تفاصيل خطتها.

كانت الستائر مسدلة على نوافذ غرفة الاستقبال حين وقفت كاتيا تتنفس بغبطة أمام الهواء البارد الذي كان يلفح جلدها الحار.

جاءها صوت من خلفها قائلاً: «هل كانت جولتك في التسوّق ناجحة يا كاترينا؟»

أطلقت شهقة دهشة إزاء سؤال نيكولو المهذب بينما كان ينهض بقامته المديدة، من على أحد المقاعد المريحة. ونظرت إليه وقد جمد ظهوره المفاجيء، الدم في عروقها.

قالت له غاضبة: «لماذا تواري نفسك هكذا في الظلمة؟»

قال: «إنك تعتبرينها ظلمة لكونك دخلت حديثاً إلى الغرفة من الخارج يا عزيزتي. وعندما تعتادينها سترتاحين إليها. ولكنك لم تجيبي عن سؤالي. ما هي الأزياء الرائعة التي اشتريتها لتخلبي بها لب المعجبين بك وتعززي بها مركزك كرائدة للأزياء العصرية... هم م م...؟»

كان السؤال بالغ الرقة وصوته بالغ الهدوء. لقد أصبح في إمكانها الآن، بعد أن اعتادت عيناها ظلام الغرفة، أن ترى في الخطوط المتوترة حول فمه الجميل، وفي لمعان عينيه خطراً صامتاً.

قالت وهي تتطلع بهلع إلى حقيبة اليد الصغيرة المعلقة بأصابعها: «لا شيء. لم أشتر شيئاً. لم أجد ما يعجبني.»

قال: «إذن، كان يجب أن تقومي بالتسوّق في قلب البندقية وليس في الليدو.»

لكن لهجة نيكولو المتسائلة التي لم تفقد حلاوتها، لم تفلح سوى في أن جعلت كاتيا ترفع ذراعها مجفلة وقد بدا عليها الخوف، ليتحول هذا الخوف إلى غضب. ذلك أنها لم ترتكب ما يشين.

قالت بهدوء: «لقد غيّرت رأيي. أليس هذه عادة النساء؟ إلى جانب أن...» وتوقفت عن الكلام فجأة لتسأله: «كيف علمت بمكاني؟ هل بلغت بك الوقاحة إلى حد وضع من يتتبع خطواتي؟»

قال وهو يتقدم نحوها: «كلا يا عزيزتي... ليس أنت. لقد صدقت كذبتك على ماريا. إذ انني مع علمي بأنك تبيعين نفسك في سبيل المال، وليس عندك شعور بالمسؤولية، مع ذلك، لم أشك في أمرك ولم أتوقع منك الخيانة. لقد كان صديقك سيزار برونيللي هو موضع اهتمامي. لقد عينت من يتتبع خطواته منذ عودتي من ميلانو لكي اكتشف أعوانه في جرائمه.»

فغرت كاتيا فاها مأخوذة وقد تسارعت ضربات قلبها وشعرت بألم في صدرها أحدثه التوتر المؤلم الذي تملكها لتقول ببلادة: «أعوانه؟»

تملكها الذعر إذ كانت تعلم جيداً أن وراء هدوء نيكولو الظاهر كان يكمن غضب أسود عميق.

تقدم مرة أخرى ليقف بينها وبين الباب قائلاً: «يا لهذه البراءة. إن جمال وجهك لا ينم عن الظلام الذي يكتنف روحك. أليس كذلك؟ ماذا دفع لك سيزار يا كاتيا؟ أي شيء قدمه إليك مما لم أستطع أنا تقديمه؟»

بخطوة سريعة، تقدم يمسك كتفيها بيديه القويتين قائلاً: «أم لعلك قررت عدم مواجهة مسؤولية كونك زوجة لي؟ وأنه

www.elromancia.com

ليس في استطاعتك اعطائي أولاداً سواء بمباركة الكنيسة أم بعدمها، أهذه هي المسألة يا كاتيا، هل قدم برونيللي إليك النقود دون أي ارتباط به؟ هل كان الإغراء بأن تكوني امرأة ثرية، أقوى من أن يمكنك مقاومته؟ أخبريني. ماذا كان ثمن محاولتك تدمير أعمالي؟»

كان السؤال الأخير مصحوباً بهزة عنيفة لكتفيها حين نظرت إلى وجهه الغاضب بعينين متبلدتين، لتقول وقد امتلأت عيناها الزرقاوان بالضراعة إزاء نظرته المسيطرة: «نيكولو... صدقني. ليس لديّ أية فكرة عما تتحدث عنه كيف يمكنني تدمير أعمالك حتى ولو أردت ذلك؟ إنني لا أعرف عنها شيئاً؟»

قال بمرارة: «إنه أثناء تلك الليلة الأولى من اتصالنا... حين ائتمنتك على أسرار عملي بحماقة. لقد تقاضيت مني ثمناً باهظاً لما هو حق شرعي لي. لقد صعدت إلى مكتبي في الطابق الأعلى بينما كنت غائباً لتصوري تصاميم السيارات التي نصنعها.»

ارتفع صوته يتهمها دون هوادة: «التصاميم التي ظهرت هذا الصباح في المجلة التي يقوم فيها برونيللي بتحرير هذه الزاوية.»

تركت إحدى يديه ذراعها لتمسك بشعرها محولاً رأسها بعيداً عنه ليحدق في وجهها المذعور، وقد سادت القسوة ملامحه وهو يتابع: «إلى أي حد تبلغ كراهيتك لي، وإلى أي حد كان سرورك حين استدعيت إلى ميلانو لأواجه الكارثة؟»

قالت وهي تشهق: «لم أصعد قط إلى الطابق الأعلى ولم أكن أعرف أي مكان لهذه الأشياء. وبرغم كل ما

حدث بيننا فإنني ما كنت لأفكر في الغدر بك بهذا الشكل.»

قال وهو يمسك بذقنها بأصابعه: «أتعلمين؟ إنني أوشك أن أصدقك. إنني أوشك، وإنما ليس تماماً. ربما لو لم أكن أعرف كم أنت ممثلة بارعة، لصدقتك.»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم تظهر في عينيه اللتين تابعتا التحديق فيها بنظراتهما الغاضبة واستطرد: «ولكن، إذا أنت أخبرتني بالحقيقة، وأن الغرض من ذهابك اليوم إلى ذلك الرجل لم يكن سوى للعبث، عند ذاك فقط يمكنك أن تطمئني. اسمعي يا كاتيا، عندما نشرت بعض تصميماتنا الأولية دون ترخيص، في المرة الأولى، لجأت أنا إلى طريقة هي أن تعمدت تزييف بعض التصميمات في مكتبي هنا. فإذا باعها برونيللي أو نشرها إلى المنافسين لنا فسيخسر كل مصداقيته وثقتهم به، وأنت يا عزيزتي عليك عند ذاك أن تواجهي النتائج.»

قالت بصوت متحشرج لشدة المعاناة: «إنه لن... إنه لا يستطيع... على الأقل لم يحصل عليها عن طريقي يا نيكولو... يجب أن تصدقني.» فارتسمت على شفتيه ببطء ابتسامة قاسية وهو يقول: «يجب أن أصدقك؟ ما هي الأسباب الأخرى التي جعلتك تمضي كل ذلك الوقت بصحبة برونيللي؟ أخبريني... هل هو عشيقك يا كاتيا؟»

قالت: «كلا طبعاً» وحاولت أن تتخلص منه هاربة، ولكنه كان أسرع منها إذ رفع يده يمسك بشعرها، مقيداً بذلك رأسها مجبراً إياها على أن ترفع وجهها وتتطلع إلى وجهه الغاضب. فقالت لاهثة: «لقد طلب مني لقاءه

www.elromancia.com

خارجاً. كان يريد أن يعرف كيف ورث جدي اللقب.»

جذبها إليه بشدة وهو يقول: «هل فعل ذلك بامتلاكه جسدك الجميل؟»

لم تستطع أن تتخلص من ذراعيه القويتين وهو يسحق صدرها بصدره وقد بدت الرغبة في عينيه. إن انكارها تآمرها مع برونيللي لم يخلصها من الخطر الذي يهددها. الطريقة لصب غضبه عليها هي التي تغيّرت. لقد كان يلتهب غضباً عليها، فلو كانت رجلاً لضربها حتى تستسلم، ولكن تركيبها الأنثوي الرقيق غيّر أسلوبه في عقابها. ذلك أن الغضب والرغبة معاً يتغذيان من نفس الهرمون. وافزعها معرفتها بذلك. وفتحت فمها احتجاجاً تعلن براءتها ولكن نيكولو أطبق عليها بقبلة بلغت من الوحشية حداً تركها تلهث وتكاد تختنق.

قال بصوت متحشرج: «يجب أن أتحمل جزءاً من اللوم لكوني أهملتك.» وعندما رأى ارتعاشها، تركها وهو يقول: «إن خسارة برونيللي هي ربح لي. وأي وقت لفض نزاعنا هو أفضل من هذه اللحظة؟»

لكن هذا كان تصميماً منه وليس سؤالاً.

قالت كاتيا وهي تحاول تخليص نفسها منه: «كلا، يا نيكولو.» ولكنه كان أقوى منها، وقال ساخراً: «نعم، يا كاتيا. ربما كان قلبك الصغير البارد يكرهني، ولكن جسدك الصغير الحار يخبرني شيئاً آخر. سواء كنت ماركيزة، وكنت أنا فلاحاً، فإننا يجب أن نشترك في أمر واحد، وهو العلاقة الحميمة...»

كان نيكولو هو الذي اخترق الصمت، إذ جر نفسه مرتكزاً

على مرفقه، محدقاً في وجهها بملامح جامدة وكأنه مصور يسجل في ذهنه تفاصيل جسدها.

قال: «هل استطعت الاثبات على ما قلته عن الماركيزة والفلاح؟»

ألمتها لهجته الجامدة، وأشاحت بوجهها تخفي الدموع التي تفجرت فجأة من مآقيها.

قال: «هذا حسن! إذ عندما كنت تتغدين وتستمتعين بأشعة الشمس مع برونيللي تحت ستار ملء خزانة ثيابك، قمت أنا بزيارة الكاهن لأخذ موعد لحفلة الزفاف في الكنيسة. وسيقام العرس خلال اسبوعين.»

حل الفزع محل اليأس في نفس كاتيا وهي تستقيم جالسة في فراشها لتقول: «وكيف تجرؤ على تدبير أمر مثل هذا دون استشارتي؟ لقد سبق وأخبرتك...»

صرخ فيها بصوت يماثل ملامحه الغاضبة: «اسكتي... مهما كانت ذنوبك من غدر وخيانة وغير ذلك، فهذا لا يهمني. لقد اخترتك زوجة لي ولا يمكن لأي شيء آخر أن يغيّر من هذا الأمر. إنني لن أهين والديّ بإدارة ظهري إلى ما يتوقعانه مني. ولا أريد لأولادي أن يشعروا بالخجل منا. لقد كنت آمل أن توافقي على رغبتي هذه، ولكن بما أن هذا الأمل قد خاب، فإن الزفاف سيتحقق دون موافقتك. ومهما كانت خلافاتنا، فسنعرف دائماً أين نسويها. أمامك اسبوعان يا كاتيا لكي تتقبلي فيهما الوضع، هذا إذا كنت تريدين إنقاذ كرامتك ومستقبلك.»

www.elromancia.com

الفصل العاشر

كان الوقت متأخراً، في المساء التالي، عندما نزلت كاتيا من سيارة اجرة أمام منزلها في قرية سادينغهام، بعد رحلة كالكابوس عبر أوروبا. لقد استقلت القطار، إذ لم تستطع والتعاسة تتملك نفسها، أن تقرر كيفية السفر. لقد غيّرت القطار مرتين، وعندما كان يتملكها الإرهاق، كانت تختلس لحظات من نوم خفيف مضطرب. ولكن عقلها المضطرب لم يسمح لها بأن تشعر بالراحة والاسترخاء.

لقد أفلحت خطط نيكولو فقط في استعجال تنفيذها لخطتها التي سبق وصممت عليها في الهرب وكانت تأمل في اكتساب الوقت بينما كان نيكولو يحاول تغيير رأيها. ولكنها لم تقبل بأن تمتثل لإرادته الصلبة في أن يرتبطا معاً طول الحياة برباط لا ينفصم، لذلك فضلت الاستعجال في الهرب.

لم يكن ذلك يعني أن بإمكانه أن يجرها بالقوة إلى كنيسة علبة المجوهرات، ولكنه كان يعلم أنه ليس بإمكانها أن تعرّضه إلى استهزاء الضيوف عندما يبدأون بالتوافد.

بعدما أخبرها بأمر الزفاف، اغتنمت هي فرصة دخوله إلى الحمام لتبدأ بوضع خطة الفرار تلك. لقد تناولا العشاء بهدوء على الشرفة في الحديقة. وعندما أخبرها نيكولو بأدب، انه يعتزم أن يمضي بقية المساء في العمل، كادت تقفز فرحاً لهذه الفرصة التي هي بحاجة إليها.

وسرعان ما كانت تدعي الصداع عذراً لتنسحب إلى شقتهما.

انتظرت ساعة احتياطاً في ما لو غيّر رأيه، ومن ثم ابتدأت بتنفيذ خطتها. ارتدت سروال الجينز وقميصاً وفوقهما سترة. كان كل ما تحتاجه حقيبة يد تضع فيها نقودها وجواز السفر، ومن ثم تأخذ طريقها. وفي آخر لحظة أضافت حقيبة التبرّج وقبضة من المناديل الورقية وفرشاة الشعر. كم كان قليلاً ما تحتاج إليه، وكم كان كثيراً ما ستتركه خلفها.

ألقت بنظرة إلى يدها اليسرى حيث كان خاتم الزواج متألقاً بفصوص الماس والياقوت. كان رمزاً دون معنى لحب لم يكن قط. وبخفة خلعته من اصبعها ووضعته على وسادة نيكولو. إنه سيخبره بكل ما يريد معرفته. وهكذا ارتاح ضميرها، وتركت الشقة هابطة الدرج الجميل بهدوء.

بعد دقائق، كانت تتجه نحو باب صغير كانت قد اكتشفته في وقت سابق حيث كان يفتح على ممر ومنه إلى باب آخر يفتح على درج من الحجر تهبط منه مباشرة إلى رصيف مرسى القوارب خارج القصر.

لحسن الحظ، لم يكن ثمة أثر لجوفاني، ولكن كان ثمة قارب للأجرة ماراً أملاً في العثور على راكب، فنادته مسرورة لكرم نيكولو عليها بالنسبة للنقود.

لم تكن تفكر في الذهاب، أثناء الليل إلى مطار ماركو بولو، بل كان أملها منحصراً في أخذ قطار، أي قطار يذهب بها إلى أي مكان يبتعد بها عن البندقية وعن نيكولو كاشياتور. وداخل قمرة الزورق، غاصت في المقعد المريح

www.elromancia.com

ملقية رأسها إلى الخلف بينما كان الزورق يسلك طريقه خارجاً من القناة الصغيرة ليدخل القناة الكبيرة، وما أن ترك منطقة القناة الكبيرة ليدخل إلى البحيرة الواسعة حتى ذاب الثلج الذي كان يغلف مشاعرها لتنخرط في البكاء بصمت.

أخيراً، أوصلها الحظ فقط إلى «كاليه» لتجلس بانتظار عبارة المانش. وعند وصولها إلى «دوفر» كان عليها أن تغيّر الليرات الإيطالية والفرنكات إلى جنيهات استرلينية قبل أن تتابع رحلتها بالقطارات وسيارات الأجرة حيث أنه لم يبق عندها نقود كافية لتستأجر سيارة خاصة تحملها إلى قريتها.

أخيراً، قد أصبحت في قريتها، وكل ما كانت تريده هو أن تستلقي على سريرها القديم. ولكن، أولاً عليها أن تواجه جدها. أن تجعله يتفهم السبب الذي جعلها غير قادرة على أن تستمر في هذه الصفقة التي عقداها على حسابها.

كانت العمة بيكي هي التي فتحت لها الباب لتهتف وقد شحب وجهها: «يا إله السموات. كاتيا، عزيزتي، ما الذي جرى؟ لماذا أنت هنا؟» وتراجعت مفسحة لها الطريق لتدخل وتأخذها بين ذراعيها حالما تخطت العتبة، وهي تقول: «أوه، يا للعزيزة... ما هذا؟»

انفجرت كاتيا بالقول وقد منعها الإرهاق من التحدث بهدوء: «لقد تركت نيكولو. إنه لا يحبني ولم يحبني قط.» وفتح باب هناك لترفع كاتيا وجهها من فوق كتف عمتها، حالما سمعت صوت جدها يقول: «كاتيا؟ لماذا لم تبلغينا مقدماً بحضورك؟ وأين نيكولو؟»

أجابت: «لأنه لم يكن لديّ وقت لأخبرك يا جدي.»

تركت حضن عمتها لتتجه إلى جدها مادة يديها بشوق وهي تتابع: «ونيكولو ما زال في البندقية. لقد انتهى زواجنا يا جدي وتركته. وأنا أريد الطلاق.»

هز الجد كتفيه وقد بدا العبوس على ملامحه: «الطلاق؟ إن أسرة لورنزو لا تعترف بهذا الشيء المقيت. إذن، فقد اختلفتما؟ إن هذا شيء عادي بين المتزوجين حديثاً. ولكن أن تهربي بعيداً، فهذا عمل غير مسؤول. ولكنني متأكد من أن زوجك سيصفح عنك إذا أنت عدت إليه بتوبة حقيقية.»

برغم الإرهاق الذي كانت كاتيا تشعر به، فقد اشتعلت نفسها غضباً. وقالت: «ليس أنا الذي يجب أن يتوب. لقد كان سلوك نيكولو غير قابل للغفران، وليس عندي نية للعودة أبداً.»

لكن انطونيو لورنزو بقي عابساً وهو يقول: «نيكولو هو رجل، له قوة الرجل ورغباته. فهو ليس بحاجة إلى أن يقدم حساباً إلى زوجته عن تحركاته.»

لم يكن في استطاعتها سماع هذا الكلام. ولكن ملامح جدها لم تظهر لمحة تفهم أو عطف. لقد كان بالطبع من جيل مختلف. نشأ في بلده على عادات ومفاهيم قديمة... ولكن أن يصدر حكماً دون برهان...

قالت: «حتى ولو كانت هذه التحركات تتضمن ضربه لي؟»

وخزها ضميرها وهي تدلي بهذه الكذبة، ولكنها عللت الأمر في ما بينها وبين نفسها، بأنها لم تتهم نيكولو حقيقة، بهذه الفعلة وإنما لتحمل جدها على مراجعة حكمه

www.elromancia.com

الاستبدادي: وجاءها الجواب الظالم: «إذا كانت هذه هي المسألة، فلا بد أنك كنت تستحقين ذلك.» وشهقت كاتيا بألم.

قالت العمة بيكي: «أرجوك يا انطونيو. إن كاتيا مرهقة جداً. ألا ترى ذلك؟ إن ما هي بحاجة إليه الآن هو الطعام والنوم. وغداً سيمكنها أن ترى الأمور بشكل مختلف.»

ها قد هبت العمة بيكي إلى نجدتها بصوتها الهادىء الحنون.

قال انطونيو: «نرجو ذلك.» ومد ذراعيه إلى حفيدته وقد لانت ملامحه وهو يقول: «الحق مع بيكي، إذ يبدو عليك الإرهاق حقاً. صدقيني، ارتاحي هذه الليلة وفي الصباح ستدركين مبلغ حماقتك.»

واجهته قائلة بازدراء وقد أدركت أن وقت المحاسبة قد حان: «كلا. هذا ليس عدلاً يا جدي، فقد اكتشفت الحقيقة. إن نيكولو لم يحبني قط، بل كان يتظاهر بذلك. كان كل ما يريده هو أن يتزوج من أسرة كاستيلون، وعندما اكتشف انك ورثت لقب (ماركيز) أخذ يبحث عني لأنني حفيدتك!» وتهدج صوتها وهي تستطرد: «كان كاذباً في كل ما أخبرني به، فقد كان على علاقة حب مع امرأة من ميلانو.»

سكتت لتلتقط أنفاسها، ومدت يدها إلى الجدار تستند إليه إذ لم تعد ساقاها تستطيعان حملها. ثم استطردت بصوت متألم: «ولكنك يا جدي، لماذا لم تخبرني بالحقيقة عن ماضيك؟ وبالقضية التي يتخذها نيكولو ضدك. لماذا تركتني اكتشف بنفسي أن زواجي هو مدبّر بينكما أنتما الاثنان؟»

قال انطونيو لورنس بخشونة متجنباً نظراتها: «لقد كان اللقب نشازاً في غير وقته. إنني لم أستطع رفضه ولكنني استطعت تجاهله بعد الغائه رسمياً في إيطاليا.»

قالت ونظراتها تعبّر عن الألم الذي يغلّف قلبها: «ولكن نيكولو لم يستطع تجاهله. أليس كذلك؟ ولو لا اللقب لما كان جاء إطلاقاً إلى انكلترا ليبحث عني أو ليخدعني كي أقبل الزواج منه. بل ما كان ليعرف قط بوجودي. ولم يكن ليطلب منك أن تسدد دينك له وذلك بأن يدخلني، مغمضة العينين في هذه العلاقة الفظيعة.»

توقفت لحظة وقد مس مشاعرها شحوب وجه جدها. ثم تابعت بثبات: «أرجوك أن لا تنكر ذلك يا جدي. لقد سمعتكما تتحدثان بعد حفلة الاستقبال قبل سفرنا.»

التمع غضب فجائي في عيني انطونيو لورنزو وقاطعها قائلاً: «إنني لا أنكر أن الزواج كان مدبّراً. ولكن ليس بالطريقة التي تظنينها. لقد كنت أنا الذي دبّرت الأمر وليس نيكولو. وكان هذا لمصلحتك أنت. لحمايتك. نعم، كان هناك دين وفاء في القضية، ولكن المدين كان باولو كاشياتور والد نيكولو وليس أنا. لقد اجتمع بنا نيكولو ورآك وخطبك لأنني أنا الذي طلبت منه ذلك. كلا...» وتوقف عن الكلام حين رأى كاتيا تنظر إليه وقد فغرت فاها مذعورة. وتابع: «نعم، أنا الذي طلبت منه ذلك. إنني أنا الذي طالبته بالدين يا كاتيا، ونيكولو هو الذي دفعه.»

أفلحت الحبوب المنوّمة التي أعطتها العمة بيكي لكاتيا في مساعدتها على النوم. وعندما استيقظت بعد اثنتي عشرة ساعة من نوم بدون أحلام كانت الساعة الثامنة صباحاً.

www.elromancia.com

كان ذهنها ما يزال مشوشاً، ولم يمكنها أن تتذكر سوى تأثير ما كان جدها قد أعلنه ليلة أمس. وفجأة غابت عن عينيها الرؤية وابتدأ الظلام يلتف حولها.

لقد كانت العمة بيكي هي التي تولت الأمر لتقود جسمها المتعب إلى كرسي، مصرة على أن تتناول كوباً من القهوة وتأكل شيئاً من الطعام. وأكلت هي مرغمة إذ لم يكن لها خيار آخر في ذلك الوقت.

بالنسبة إلى جدها، فقد أظهرت بيكي إرادة حديدية في حمله على تركهما وحدهما والخروج من الغرفة. لقد حاولت عبثاً حمله على الإدلاء بتفاصيل تصريحه ذاك، مع أن كاتيا لم تكن تنقصها القوة، عقلاً وجسداً لإرغامه على إيضاح ما قال.

عندما ناولتها عمتها الحبوب المنومة، رفضت أخذها ولكن عمتها ألحت عليها بذلك وكانت على حق كما اعترفت كاتيا لنفسها في ما بعد وهي تشعر بالراحة التامة بعد استيقاظها من النوم. مع أن ذهنها ومشاعرها كانت في غاية الاضطراب.

مع انها كانت من الإرهاق، في الليلة الماضية، بحيث لم تستطع سوى التهالك في فراشها تبغي الرقاد إلا أنها في الصباح اغتسلت ومن ثم قامت بغزوة لخزانة ملابسها لتختار ما يناسب ارتداؤه من بين ثيابها التي سبق ونبذتها. واختارت لمثل ذلك اليوم من حزيران /يونيو، سروال جينز أسود وقميصاً أزرق طويل الكمين.

ربطت شعرها إلى الخلف بشريط أسود، كما وضعت بعض الزينة على وجهها. لم تكن تشعر بالرغبة في تحسين

مظهرها بالنسبة لما كان يغمر نفسها من الحزن. ولكن هذا كان مجرد تصرف آلي. يجب أن تبدو بمظهر الشجاعة لتتمكن من تقبل ما سيدلي به جدها عندما يبدأ بإيضاح الأمور جميعاً ومن هنا تكون البداية للسير في الاتجاه الصحيح.

مهما كانت البواعث التي دعته إلى القيام بهذه المهزلة المخيفة فقد كانت تدرك من أعماقها أن جدها يحبها. ستستمع إليه بهدوء وهو يدلي بإيضاحاته، وبعد ذلك فقط، ستتمكن من الحكم على الطريقة التي دمر بها حياتها. ولكن، مهما يكن الأمر فقد هدأت مخاوفها. ذلك انها تأكدت من أن نيكولو لم يردها كما أنه لم يحبها قط، ولو أن تصرفاته كانت أحياناً تظهر خلاف ذلك. وشعرت بغصة في حلقها، وقد صممت على أن لا تدع مجالاً للدموع. لماذا يستعملها كحجر الشطرنج، الاثنان اللذان تحبهما أكثر من أي شيء آخر في العالم.

ربما تكون الظروف قد تغيّرت، ولكن النتيجة بقيت هي هي. وهي أن نيكولو لم يحبها كما أنه لم يرغب قط في اتخاذها زوجة. وأشعرتها المذلة بالغثيان. إنه نيكولو الذي أسيء إليه بفرض زوجة عليه لا يريدها، مع أنه كان يبدو عليه أنه سيفي بهذه الاتفاقية، على الرغم من عنادها. فان كراهيته لها لا بد وصلت إلى حدها الأقصى وهي تمثل دور المرأة الشرسة.

كانت العمة بيكي في المطبخ عندما دخلت كاتيا وقد جذبتها رائحة الطعام الشهية.

قدمت إليها عمتها الطعام وهي تقول: «سمعتك تغتسلين

www.elromancia.com

فجهزت لك الفطور. هيا يا عزيزتي حيث انني سأتناول فطوري معك ما دمنا الآن نحن الإثنتان وحدنا.»

سال لعاب كاتيا أمام الطبق السخي بالسجق والبيض الذي وضعته عمتها أمامها، واكتشفت فجأة كم كانت جائعة دون أن تشعر.

قالت لعمتها: «أنحن وحدنا فقط؟ وأين جدي إذن؟»

«إنه ما يزال في فراشه.» وسكبت كوبين من القهوة ناولتها أحدهما ووضعت كوبها هي أمامها وهي تستطرد: «إنه يتأخر في فراشه هذه الأيام وأنا لا أحب إزعاجه. وسيطلب هو فطوره عندما يتهيأ لذلك. ولكنني أخشى أن يكون قد تضايق لما حدث بالأمس، فلا يخرج من غرفته قبل وقت الغداء.»

قالت كاتيا بجفاء: «إنهما ضايقاني أنا أيضاً. إنني لم أكن لأتصور قط أن جدي سيشعر أن من واجبه أن يشتري لي زوجاً. لقد كانت فكرة أنه باعني إليه، سيئة بما فيه الكفاية، أما أن يكون الأمر هو أنه فرضني أنا عليه...» وهزت رأسها بيأس.

نظرت إليها عمتها بحزن وقالت: «لقد سمعت ما قاله انطونيو لك ولكنني لا أعرف أكثر من ذلك. ولقد صدمت أنا أيضاً بذلك، فقد كنت أظن أنك ونيكولو تتبادلان حباً عنيفاً.»

قالت كاتيا: «وهكذا أنا كنت أظن.»

أنهت كاتيا فطورها في جو يشوبه الضيق. وكانت تشعر بحرج واستياء عمتها، ولكن ما هو ذنب العمة في ذلك؟ لقد عاشت عمتها مع جدها في مودة ومحبة وكان كل أملهما هو توفير بيت محب لها، ولكن كان هذا هو

كل شيء، فقد كان كل منهما يحتفظ بآرائه وأسراره لنفسه.

انتظرت كاتيا مرور فترة الصباح بفارغ الصبر لكي يمكنها أن تعرف كيف وضع جدها خطته تلك وماذا خلفها! وكانت كممرضة معتادة على الصبر فقد كان هذا من الضروري لها أثناء تأدية عملها في المستشفى. ولكن كيف يمكنها أن تقتل الوقت حتى يشاء جدها أن يخرج من غرفته؟ سرعان ما جاءها الجواب. إنها تستطيع أن تسير إلى مكان «كارفيل» حيث تستأجر مهرة للركوب. وقد كانت تحسن ركوب الخيل وبالتالي يمكنها الاستمتاع بذلك على الرغم من غيوم الأسى التي تحيط بها من كل جانب.

رحب بها ريتشارد بسرور لدى رؤيتها في ساحة التدريب وقال باسماً: «كاتيا! ما أشد سروري برؤيتك. لا تخبريني أن زوجك يريد أن يشتري حصاناً آخر...»

حملت نفسها على الابتسام وقالت وهي تهز رأسها نفياً: «كلا. لا أدري إذا كان لي حظ في الركوب.»

قال وهو ينظر إليها بإمعان: «بالتأكيد. أليس نيكولو معك؟»

قالت باقتضاب: «كلا. ليس هذه المرة.» ولم تزد، إذ لم تشعر أنها في حالة تمكنها من إيضاح الأمر حتى لريتشارد.

قال: «حسناً. سأطلب من السائس أن يجهز لك (تريجر) خذي. من الأفضل لك ارتداء هذا.» وناولها رداء للركوب مع قبعة. وهو يستطرد: «وسيري على مهل، فإن تريجر غير معتادة على الركض.»

كانت نصيحته حسنة امتثلت لها كاتيا مسرورة

www.elromancia.com

بالسير خبباً في الطريق الضيق خلال الغابات نحو الحقول.

عندما عادت إلى الإصطبل، كانت الساعة حوالي الحادية عشرة تقريباً. وبدت الساحة خالية وهي تركض بالمهرة إلى مكانها. ولكن بينما كانت تحاول النزول عنها، سمعت صوت خطوات رجل خلفها.

هتفت بوجه متألق: «كانت النزهة على المهرة في غاية المتعة.» وربتت على رقبة المهرة التي أخذت تصهل مسرورة وجاءها صوت يقول: «إنني مسرور بهذا، يا عزيزتي.»

لم يكن هذا صوت ريتشارد بل صوت نيكولو الذي كان يرتدي ثياباً سوداء من عنقه حتى كاحله. سروال جينز أسود وكنزة سوداء مقفلة، يكمل ذلك شعره وعيناه السوداوان اللتان كانتا تنظران إليها بحنق يتعارض مع كلماته الرقيقة. كانت نظراته تعكس كل ما يمكن أن يتفجر في رجل مثله وفي مثل هذا الموقف، من حنق، وكبرياء، ورجولة.

امتزج الخوف والغضب في نفسها ليلهب وجنتيها وهي تقول: «أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ وكيف عرفت بأنني هنا؟»

قال: «إنني هنا لأعيدك إلى البندقية معي. وماذا غير ذلك؟ إن بيننا علاقة في غاية الأهمية علينا أن نحفظها إذا كنت تذكرين. أما كيف وجدتك، فإلى أي مكان آخر ستهربين؟ بعد أن أرحت نفسي من أن برونيللي لم يقدم لك سريراً تمضين فيه الليل، لم يبق عليّ سوى انتظار اتصال هاتفي من جدك يخبرني فيه بوصولك، وهذا ما فعله الليلة الماضية.»

قالت بمرارة وهي تستعيد ذكرى العذاب الذي عانته أثناء سفرها: «لقد وصلت إلى هنا في وقت قصير.»

قال: «من حسن حظي أن الطائرة كانت على وشك التحرك، لقد تركت إيطاليا باكراً وسأعود هذه الليلة.»

قالت: «إذن فإنني لن أؤخرك عن العودة.» وبأصابع مرتجفة فكت رباط قبعة الركوب، وخلعتها عن رأسها. وكان عليها لذلك أن تحل الشريط الذي يربط شعرها، المتناثرة خصلاته الذهبية على كتفيها.

قال: «إنني لن أتأخر ما دمت معي.» فاستجمعت كل ما تملك من شجاعة لتهز رأسها قائلة: «كلا. لقد أخبرني جدي كل شيء. حدثني كيف وضعتما المؤامرة معاً. وكيف توسل إليك أن تأخذني من يده وكأنني كنت عالة عليه. و...»

قاطعها قائلاً: «إنه لم يحدثك عن كل شيء يا عزيزتي.» وبخطوتين كان بقربها يمسك بها مبعداً إياها عن الفرس ليأخذها بين ذراعيه، وهو يستطرد: «لقد أتيت الآن بعد أن أجريت معه حديثاً مطولاً.»

جاهدت بشدة للتخلص من بين ذراعيه وهي تقول: «(تريجر) يجب أن ننتبه إلى تريجر المهرة.»

نظر إليها بعينين جامدتين وهو يقول: «وهكذا أنت يا زوجتي. إن المهرة تعرف حظيرتها أكثر مما تعرفين أنت بيتك.»

بدا أن المهرة، تأكيداً لكلامه، ركضت إلى حظيرتها عندما جاء السائس ليأخذ بلجامها.

قالت وهي تضرب صدره الصلب بقبضتيها بحدة وغضب: «هذا ليس حسناً يا نيكولو.»

www.elromancia.com

لقد تذكرت بمرارة كم كانت الظروف الماضية مشابهة للحاضرة عندما أدركت لأول مرة كم كانت تحبه. واستطردت: «لا أدري ما هو قصدك في إقناع جدي بينما أنا لم يعد يهمني الأمر. إرجع إلى جينا واعترف بولدك منها. فإذا كانت تحبك كما تحبها، فهي ستترك زوجها لأجلك. وإنني قد قررت أن أطلب الطلاق منك أمام القضاء الانكليزي على أساس سوء السلوك. ومن حسن الحظ انه، إذا أنا أبرزت البراهين اللازمة، فلن يكون عليّ قضاء المهلة القانونية وهي سنتان، قبل أن يحكم لي بالطلاق. ويمكنك بعد ذلك أن تتزوج من خليلتك وتعطي اسمك لأولادك منها.»

قال: «يا إلهي، ألا تمسكين لسانك؟»

قالت: «هل بعد ما فعلتماه بي أنت وجدي؟» وحاولت أن تخلص نفسها منه مرة أخرى وهي تتابع قولها: «عليك أن تقطع لساني بالسكين إذا أردتني أن أسكت.»

قال عابساً: «صدقيني ما أذقتك إياه حتى الآن من عقاب لا يقاس بما سأذيقك إياه في المستقبل إذا أنت لم تهدئي وتعيريني سمعك.»

أجابت بحدة: «إنك...» ولكن الكلمات ماتت على شفتيها عندما جذبها إلى صدره بشدة. وقد حنى رأسه محتوياً وجهها بحرارة نارية جعلتها، حين أطلقها أخيراً، تلهث بشدة.

صرخت في وجهه: «متوحش.» ورفعت يدها تتلمس وجهها الذي كان متضرجاً بعدما تركها نيكولو. والحقيقة أنه لم يؤلمها بعناقه ذاك بقدر ما أثار أحاسيسها. وهذا

التأثير جعلها لا تريد شيئاً أكثر من أن ترى ظهره إذ يبتعد عنها، إلى الأبد.

ألقى عليها نظرة تهديد من بين أهدابه الكثيفة وهو يقول: «إنني متوحش، أليس كذلك؟»

قالت متلعثمة: «نعم، كلا، نعم.» كانت قد اعتادت أن تجد ملجأ بين ذراعيه، حيث تستمتع برقته كما تستمتع برغباته الحارة. إنما الآن، كان قلبها يخفق بشدة وقد جمّد الرعب مشاعرها.

قال: «من الأفضل أن تخافي مني، لأن الرجل المتوحش لن يتردد في ضرب زوجته العاصية وغير المخلصة، قبل أن يجرها إلى بيته.»

قالت متلعثمة وقد استبد بها الرعب لهذه التهمة: «ولكنني، لم... لم أكن قط غير مخلصة لك يا نيكولو. لا أظنك تعتقد حقاً، أن دفع سيزار برونيللي ثمن غدائي، أو مقابلتي له في (الليدو) يعني أن ثمة شيئاً كهذا بيننا؟»

ابتسم لها فجأة برقة فائقة وهو يقول: «كلا. إنني لم أعتقد هذا أبداً. ولكنه، على الرغم من حقارة مهنته فإنه يبدو أن لديه تأثيراً خاصاً على النساء. وأنت قد أظهرت لي بجلاء عدم حبك لي. وأنا لا أترك أموري للمصادفات.»

قالت كاتيا ببرود: «ولكنني وجدته قليل الذوق كلياً.» فقال نيكولو: «لقد كنت مسروراً إذ أجبرته على الإدلاء بنفس هذا الرأي بالنسبة إليك كما حملته على الإعتراف بما كان ينوي القيام به.»

نظرت إلى وجهه الصامت بعينين متسعتين وهي تقول: «هل آذيته؟»

www.elromancia.com

هز نيكولو كتفيه قائلاً: «لقد آذيت كبرياءه فقط. شخصياً ومهنياً. وهو قد أدرك الآن تماماً كيف تستقر الأمور. ولقد جاء الوقت لتعرفي كل شيء أنت أيضاً. تعالي.» وأمسك بذراعها بشدة ليقودها عبر الساحة.

قالت: «إلى أين تأخذني؟» كان في وجهه العابس وفي اطباق فكيه ما أدخل الهلع إلى نفسها، وقال: «أتريدين أن نتحدث في أمورنا الخاصة أمام مستخدمي الاصطبل هنا؟» فألقت كاتيا نظرة سريعة على السائس الذي كان يتظاهر بنفض رداء المهرة تريجر وقالت: «كلا، ليس بالضبط، وإنما...»

قاطعها: «لقد تلطف ريتشارد بإعارتنا غرفته، لكي يكون بإمكاننا تنسيق أمورنا المختلفة بهدوء.»

سارت معه إذ لم يكن لها خيار آخر. فقد كانت ترى الفولاذ في تصرفاته من وراء كلامه المخملي وأدركت بالغريزة انها إذا لم تذهب معه باختيارها فإنه على كل حال سيحملها عنوةً بين ذراعيه إلى هناك، فمن سينقذها منه؟ إذن أن تصون كرامتها أمام هذه الإرادة الفولاذية هو أجدى لها.

قال وهو يدخلها إلى الغرفة: «هذا رائع. إن هذه الغرفة تناسبنا تماماً.» ثم استدار يقفل الباب خلفهما. كانت الغرفة صغيرة دافئة تعبق في جوها روائح أسرجة الخيل والدهان وقد علقت على الجدران لجامات الخيل وعدتها. كما أن أحذية الركوب الخاصة بريتشارد، كانت موضوعة على الرف وقد بدا عليها الاعتناء البالغ.

قال نيكولو: «اجلسي يا كاتيا.» وأشار إلى الكرسي

الوحيد في الغرفة بينما جلس هو على طرف الطاولة. وأطاعته هي بصمت وهي تفكر في أنه برغم ما قد يحدثها به من كلامه المعسول، فإنه لن يستطيع اقناعها بأنه شعر نحوها يوماً بذرة من الاهتمام.

قالت تستحثه على الكلام وقد رفعت وجهها تواجه عينيه السوداوين بعينين زرقاوين خاليتين من أي خوف: «يمكنك أن تبدأ بإخباري بالسبب الذي جعل جدي يتوسل إليك بأن تتزوج مني، وبالسبب الذي جعلك توافق على ذلك.»

قال نيكولو: «للحماية.» وسكت لا يزيد، بينما هزت كاتيا رأسها غير فاهمة. وكرر نيكولو قوله: «لحمايتك يا كاتيا.» وسكت وهو ينظر متمهلاً إلى وجهها المذعور، قبل أن يعود إلى الكلام قائلاً: «لقد قال برونيللي أنه أخبرك عن الثأر الذي كان بين أسرتينا في الماضي. ولن أصدع رأسك بتكرار التاريخ. يكفي أن أقول إن قانون الفدية المعروف هو أنه يتوجب على كل أعضاء الأسرة المسيئة أن يعيدوا شرف الأسرة التي وقعت عليها الإساءة.»

قالت كاتيا باحتجاج: «ولكن، هذه همجية! ما هذا الذي تخبرني به يا نيكولو؟ أن جدي أحضرني إلى انكلترا لكي... أوه...» ورفعت يديها إلى عنقها وكأنها تحميه من وحش مفترس وهي تتابع: «أبواي... أتريد أن تقول إن أسرة كاشياتور هي التي قتلت أبويّ؟»

قفز واقفاً على قدميه، مشرفاً عليها وهو يشد بقبضته على جانبيه قائلاً: «كلا، كلا. لقد قتل والداك في حادث اصطدام. إنه اصطدام يا كاتيا. وإنني أقسم على ذلك. عندما كبر الأولاد في كلتا الأسرتين، أصبحوا أكثر ثقافة

www.elromancia.com

ونزحوا من المنطقة. وتوقف الثأر عند حد التخاطب بالمنطق والاقتناع، وبالتدريج ابتدأت الأسرتان بالتلاشي، وذلك من جراء نقص الذرية بالنسبة إلى أسرة لورنزو، وبسبب تغلب جنس الإناث على جنس الذكور في أسرة كاشياتور. ولكن جدك لم ينس الماضي أبداً.»

غمر نفس كاتيا شعور عميق بالحزن لدى إدراك مفاجيء أنار عقلها، لتقول ذاهلة: «إذن فإن جدي يعتقد أن أبي وأمي قد قتلا عمداً؟»

قال نيكولو وهو يزدرد لعابه: «نعم. لقد أظهر لهفة وقلقاً شديدين واضطراباً في الذهن. وأجريت تحقيقات واسعة أثبتت دون أدنى شك أن الحادث كان قضاء وقدراً.»

قالت كاتيا: «ومع ذلك، فإن جدي لم يقبل بهذه النتيجة؟»

وتنهد نيكولو قائلاً: «أظن أنه كان، في ذلك الوقت، على شيء من الجنون. وكان الشيء الوحيد الذي شغل باله هو حمايتك. ولهذا أعادك إلى انكلترا، موطن أمك وإلى عمتها بيكي، لأنه كان يعرفها ويثق بها.»

خنقت كاتيا المشاعر وهي تتمتم: «يا لجدي المسكين. ما أكثر ما عانى من الآلام. ولكنني ما زلت لم أفهم. إذا كان يعتبر أن أسرتك مسؤولة عن مقتل إبنه، فلماذا أراد أن يسلمني إلى...؟» وحولت أنظارها عنه إذ لم يكن بإمكانها مواجهة نظرة الألم في عينيه.

أكمل هو جملتها قائلاً بمرارة: «تعنين إليّ؟ كاتيا، أتذكرين أول مرة هربت فيها مني في البندقية؟ ثم وجدتك في ذلك المقهى مع ذلك الفتى الانكليزي؟»

كيف لها أن تنسى؟ وأومأت برأسها بصمت.

قال: «هل سبق وأخبرك برونيللي شيئاً عن الماضي مما عابني في نظرك؟»

قالت: «إنني أذكر ذلك.» وعضت على شفتها. لو كان لديها أقل فكرة عن حقيقة الأمور، لأمسكت لسانها.

قال: «وهل تذكرين أيضاً ما أخبرتك به مرة عن كلاب الماركيز الكبير التي أطلقها على أبي وكانت على وشك أن تمزق عنقه لولا تدخل صديق؟»

أجابت وهي ترتعد: «لم أنس ذلك أبداً.»

قال: «ذلك الصديق كان جدك، وباولو، أبي كان في الثانية عشرة من عمره في ذلك الوقت. وكان انطونيو لورنزو جدك، أكبر منه بست سنوات. ويظهر أنه كان من أبناء عمومة أسرة لورنزو البعيدين وكان في تلك الأثناء قادماً من حيث يقيم لحضور جنازة في أسرتهم. وعندما أمر الماركيز بإطلاق الكلاب، ذعر من مثل هذه الوحشية واندفع يحاول منع ذلك. ولكنه كان متأخراً، ولكنه تدبّر الأمر بإبعاد الكلاب بضربها بالحجارة وبذلك نجا والدي دون أذى.»

وجدت هي، واحداً من أسلافها على الأقل يمكنها أن تفخر به، فقالت: «لقد كان شجاعاً جداً.»

قال: «لقد كان كذلك، في الحقيقة. لأنه وإن كان قد منع الكلاب من أن تصل إلى ذلك الغلام، إلا أنه لم يستطع منع الماركيز الكبير من أن يأمر بجلده هو بالسوط عقاباً له على تدخله. لقد انتشرت هذه القصة بسرعة في القرى الصغيرة. وعندما أخبر أبي والديه بقصة انقاذ انطونيو لحياته، لحقا بانطونيو عندما عاد إلى بلده نابولي ليشكروه. في ذلك

www.elromancia.com

الوقت، كان أهلي من الفقر بحيث لم يكن في استطاعتهم مكافأته برغم أن أنطونيو لم ينتظر أو يتوقع مكافأة على عمله. ولكن والدي تعهد بأن يبقى جميل انطونيو نحوه ديناً في عنقه طوال حياته وأن على جدك أن يطرق بابه في أي وقت يحتاج إلى عون.» وابتسم نيكولو باكتئاب وهو يتابع: «من المضحك أن القضية كلها، كانت عبارة عن قانون الثأر ذاك، ولكن هذه المرة الثأر مات وانتهى إلى الأبد. هل فهمت؟»

تعلقت عيناه بعينيها الزرقاوين، وقد ارتخى فكه قليلاً، وبدا على جانبي فمه توتر فضح مشاعره المترقبة لجوابها.

انفرجت شفتا كاتيا وقد صدمت بما علمت ولكنها قابلت نظراته ببساطة وهي تقول: «نعم. أظن أنني فهمت. إنك تعني أن الأمر هو، إنقاذ حياة، مقابل إنقاذ حياة.»

الفصل الحادي عشر

مشى نيكولو يذرع أرض الغرفة وقد وضع يديه في جيبيه وحنى كتفيه العريضتين وهو يقول: «هذا حسن. ومرت الأيام. وكافح والدي طويلاً، وكان رجلاً نكياً، فترك موطنه ليتخذ عملاً كنادل في مطعم، ومن ثم بذل جهداً شاقاً في توفير ما كان يكسبه إلى أن استطاع أن يتخذ لنفسه مقهى خاصاً به. وعندما أصبح في الخامسة والعشرين تزوج، وكان سعيداً في زواجه. ولكن زوجته الأولى توفيت بعد عشرين عاماً من زواجهما دون أن تنجب له أولاداً.

بعد انتهاء فترة الحداد، قابل زوجته الثانية، وتزوج منها، إنها روزا، وهي سيدة تصغره بتسعة عشر عاماً، وهي والدتي.»

قالت كاتيا: «وماذا عن جدي انطونيو؟»

أجاب: «لقد تزوج سارة التي توفيت وهي تلد أباك ألسندرو.»

قالت: «لقد كان أبي في السابعة والثلاثين عند موته وكانت أمي أصغر منه بسنتين فقط.» ولم تستطع إيقاف العبرات التي سالت على وجنتيها وهي تقول: «إنني لا أستطيع تذكرهما.»

توقف نيكولو عن المسير وهو يقول غاضباً: «لقد كنت في الثانية من عمرك. ولكنني أقسم على أن موتهما كان قضاء وقدراً. كانت إرادة الله إذا شئت هذا التفسير. لقد كانت

www.elromancia.com

أسرتي بريئة، ولكن كما سبق وأخبرتك لم يستطع أحد أن يقنعه بهذه الحقيقة في ذلك الوقت. كان كل همه أن يحميك من الثأر. لقد كانت أمك يتيمة الوالدين، ولكن جدك كان قد قابل عمتها بيكي عندما خطبها أبوك (ألسندرو). وبمعاونة عمتك بيكي أحضرك إلى انكلترا وغير اسمك إلى اللفظ الانكليزي من لورنزو إلى لورنس. وهنا كان للأمر أن ينتهي لو لم يرث لقب «ماركيز دي كاستيلون» وكان الماركيز الكبير الذي كان ضربه، قد مات منذ وقت طويل، وتنقل اللقب أبعد فأبعد بين الأقرباء، حتى استقر عند جدك انطونيو.»

هزت كاترينا رأسها ببطء قائلة: «إنني أتذكر أنه مرّ بفترة اكتئاب في بداية السنة. ولكنني ظننت ذلك نتيجة لمرض أو حاجة إلى نقود.»

قال نيكولو: «كلا. ذلك أنه تلقى رسالة من المحامين في إيطاليا، كما أنه سبق وعلم أن التفتيش عن صاحب اللقب قد شغل بال المجتمع. وهكذا رأى أن ملجأه قد انكشف، حيث أنه لم يكن باقياً من سلالة الأسرة إلا هو وأنت. وكان هو رجلاً مسناً ربما أدركه الموت قبل أن يدركه الثأر، ولكنك أنت، أنت يا كاتيا كنت صغيرة وجميلة ومحبوبة جدا. كما أنك كنت غافلة تماماً عن الخطر الذي يترصدك وراء كل زاوية.»

قالت: «ولكنك قلت أن الثأر قد مات وانتهى؟»

قال: «آه، يا عزيزتي نعم، كما تقولين.» واقترب منها آخذاً بيديها الباردتين بين يديه حانياً رأسه يقبل أطراف أصابعها. ثم يتابع: «ولكن جدك كان يعيش في الماضي.

فالماضي بالنسبة إليه كان ما يزال حياً يهدد أولئك الذين يحبهم. عند ذاك، صمم على المطالبة بالدين الذي كان باولو كاشياتور والدي قد اعترف به. وكان والدي قد أصبح صاحباً لسلسلة من المقاهي الحسنة الإيراد، ومع أنه لم يكن يديرها بنفسه مباشرة، إلا انه كان من السهل على جدك أن يحصل على عنوانه. في الحقيقة أعتقد انه سأل عن ذلك نفس المحامين الذين كانوا قد توصلوا إلى عنوانه في انكلترا.»

قالت كاتيا بصوت منخفض: «لم أفهم تماماً.» مع أنها كانت قد ابتدأت تعرف نوعية تفكير جدها.

أجاب: «في الحقيقة ان ذلك كان سهلاً تماماً. إذ أن بين جميع أسرة كاشياتور، كان جدك يعرف أن باولو هو أجدرهم بالثقة. فكتب إليه يسأله المعونة، وذلك بأن يستعمل ما له من نفوذ على بقية أفراد الأسرة للتأكيد على عدم تعريض حياتك للخطر. ولكن كان لأبي فكرة أفضل. لقد كان يعلم أنه لم يكن ثمة خطر يهدد حياتك ولكنه وجد فرصة يوحد بها بين الأسرة التي تؤلف عائلة كاشياتور، وبين الرجل الذي أنقذ حياته لكي ينهي مخاوف انطونيو جدك فيعيش بقية حياته في سلام.»

لم تكن الشجاعة لتعوز كاتيا لتسأله، بعد أن تعمدت سماع الحقيقة من بين شفتي نيكولو نفسه، مع أن كلماته كانت تمزق قلبها، تسأله وقد اكتنفتها مشاعر اليأس: «إذن فقد طلب منك والدك سداد دين الوفاء ذاك، أليس كذلك يا نيكولو؟ طلب منك أن تتخذني زوجة لك؟»

قال وهو يترك يدها ويعود إلى مجلسه على طرف

www.elromancia.com

الطاولة: «نعم. لقد طلب مني أن أسدد ما يعتبره هو دين الوفاء ذاك. ولكنني رفضت، ليس لأنه يسرني أن أخالف أمره، أو لأنني أردت أن أختار زوجتي بنفسي، ولو أن هذا كان أمراً طبيعياً، بل لأنه كان يمكن أن يسبب لك إساءة كبرى، أعني أن أدعي مشاعر لا أحس بها، كما كان يتوجب علي فعله في ما لو قبلت أمره هذا ما دام جدك مصراً على أنك لا يجب أن تعلمي أبداً بالخطر المفروض أنه يترصدك.»

قالت دون أن تنظر إليه وقد علقت أنظارها بيديها المتشابكتين في حضنها واللتين ما زالتا تشعران بعناقه على أصابعها. قالت: «وما الذي غيّر عقلك إذن؟ أي رشوة جعلت الأمر مقبولاً منك؟ هل هددك والدك بحرمانك من الإرث في ما لو أعلنت العصيان؟»

قال والكبرياء تطل من عينيه: «ما كان لك أن تقولي هذا يا كاتيا إذ انك تعلمين جيداً أنني لا أعتمد على ثروة والدي.»

نظرت إلى وجهه الغاضب بازدراء قائلة: «ولكن، ينبغي أن يكون هناك سبب لذلك.»

أجاب: «وهو كذلك. لقد وقعت في غرامك.»

قالت محتجة: «ولكن...» وتلاشى اعتراضها حين أشار إليها بالصمت قائلاً: «لقد كتب أبي إلى جدك يطمئنه إلى أن لا يخاف بعد الآن، من أعدائه القدماء. ولكنه شعر أن ذلك قد لا يكون كافياً، فطلب مني أن أزور جدك في ما لو جئت إلى انكلترا في رحلة عمل. وبدا أن هذا أقل ما كان يجب عليّ عمله. ولكن ما لم أعلمه هو أن أبي فاتح جدك في إمكانية الزواج بين الإسرتين، في رسالته.» وتوقف متنهداً ليتابع

قوله: «وكان أن كرر جدك طلب والدي في أن آخذك في حمايتي. وأصر على أن يريني صوراً لك مخبراً إياي بمكان عملك وسكنك، متوسلاً إلي أن أقابلك وأتعرف عليك. لقد كان متأكداً من عدم قدرتي على مقاومة تأثير جمالك وسحرك.»

خبأت كاتيا وجهها بين يديها وقد شعرت بمذلة لا توصف وهي تقول: «يا إلهي... كيف أمكنه أن يفعل هذا؟»

أجاب نيكولو برقة: «لأنه كان يحبك يا كاتيا. وكان طبعاً، على صواب. وتركت قريتك سادينغهام إلى لندن مأخوذاً بصورتك التي رأيتها. هل من الممكن أن مثل هذا الجمال الرائع الخارجي، يمكن أن يكون مصحوباً بجمال داخلي، كما ظهر لي بعد ذلك، هذا الجمال الذي أصر جدك على أنك تملكينه؟ حتى أقسم أن الصور غير عادلة في إظهار جمالك. وصممت على خطة. وحيث أنه كانت لديّ إجازة، فقد قمت بزيارة إلى المستشفى حيث تعملين دون أن يعلم جدك بذلك.» وابتسم إذ رفعت وجهها إليه متسعة العينين، وتابع قائلاً: «لقد كنت متصوراً أنني سأقوم باستعلامات عدة عنك، ولكن الحظ كان بجانبي. إذ لم تمض عليّ دقائق حتى خرجت بنفسك إلى غرفة انتظار المرضى الخارجيين وذراعك حول مريضة طاعنة في السن. وعلى الرغم من شعرك المرفوع إلى قمة رأسك، وكذلك كونك في ملابس العمل، فإنني لم أخطئك. وكان جدك على حق. فإن صورك لم تعطك حقك من الجمال. لم يكن الأمر مجرد جمالك الخارجي، مع أن هذا وحده سبب كاف، وإنما كانت الطريقة التي كنت تنظرين فيها إلى مريضتك. كانت المشاعر في كل جزء من أجزاء جسمك. كنت تبدين

www.elromancia.com

عاطفية وكل خلية في جسمي أدركت ذلك واشتاقت إلى امتلاكك. في تلك اللحظة، علمت أنني وقعت في حبك. وأنني يمكن أن أفعل أي شيء لجعلك زوجة لي.»

ثار في نفس كاتيا أمل ضعيف وهي تتطلع في عينيه السوداوين، ولكن الآلام التي عانتها منعتها من أن تصدقه بسهولة، مع أن حبها له كان عميقاً خالداً في نفسها. وكان ما يزال هناك أحداث أخرى عليه أن يوضحها، أولها، علاقته بجينا كابريني، قبل أن تقبل بالعودة إليه لتعيش معه كزوجة.

لاحت على فمه القوي ابتسامة مختصرة وهو يتابع قائلاً: «يمكنك أن تتصوري سرور انطونيو وأنا أخبره أنني عدت إلى تصميمي.»

قالت: «ولكنه، بالتأكيد، كان أكثر سعادة عندما عدت إلى البيت.» قالت ذلك وهي تتذكر الطريقة الجافة التي حياها بها جدها. فهز نيكولو كتفيه وهو يقول: «بالطبع. فقد تلاشت كل مخاوفه على سلامتك، مهما كانت درجتها من الصحة. كان متأكداً من أنك ستقعين في حبي. وذلك يجعل عودته إلى إيطاليا مسقط رأسه والبلد الذي ما زال يعشقه ممكناً بعد ذلك المنفى الاختياري الذي دام سنين طويلة وذلك بعد اتحاد الأسرتين المتخاصمتين بهذا الزواج.»

قالت: «ثم هربت أنا منك لتنهار كل أحلامه.» لقد اعترفت كاتيا بذلك وقد استولت على نفسها الكآبة وهي تتصور خيبة الأمل التي سببه تصرفها لجدها.

ضحك نيكولو باكتئاب قائلاً: «لم يدرك أي منا أنك سمعتنا نتحدث مما أعطاك فكرة خاطئة عن الأمر. ولكن، إذا

كنت أنت متأنية أو غاضبة، هل يمكنك تصور مشاعري وأنا أراك تتغيرين في اللحظة التي وضعت فيها قدمك على أرض إيطاليا؟ لماذا لم تفضي إليّ بمخاوفك، يا عزيزتي؟»

تصاعد الاحمرار إلى وجنتي كاتيا وهي تقول: «شعرت بأنني خدعت وغرر بي. لقد كانت هي الطريقة الوحيدة التي أمكنني التفكير فيها لاستعادة كرامتي التي انهارت بعد سماعي ذلك الحديث. ولقد كنت خائفة يا نيكولو...» وتوسلت إليه عيناها أن يكون متفهماً ما تعني وهي تتابع قولها: «لم أستطع أن أعرف لماذا تظاهرت بحبي. وقد منعني كبريائي من أن أسألك عن ذلك. والشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه هو الابتعاد عنك بينما كنت أحاول العثور على السبب الذي جعلك تتزوجني؟»

قال نيكولو: «لم أكن مدعياً يا حبيبتي. لقد كنت أحبك كما أحبك الآن. أوه، لا أنكر أنني كنت أغضب وأشعر بالألم لتصرفاتك في البندقية. وكذلك مضطرب الذهن ولكنني ما زلت أحبك. هل يمكنك أن تتصوري ما الذي حدث لي عندما استيقظت ذلك الصباح ولم أجدك بجانبي؟»

قالت: «ولكن غضبك كان قليلاً عند رجوعي.»

ابتسمت كاتيا بينما غمرت السعادة مشاعرها.

قال: «لأنني، في لحظة جنونية، ظننت أن كوابيس جدك عن مسألة الثأر، لم تكن مجرد أوهام، وأنه ربما قد اعتدى عليك شخص وضيع من عائلتي.» وتنهد بعمق «لو أنني كنت فقط أعلم ما يدور في رأسك، لكنت أرحتك من كل مخاوفك ولكنني لم أكن أعلم إلى أي مدى غرس برونيللي بذور الشك في مخيلتك. لقد حدثت نفسي أنه من الطبيعي أن

www.elromancia.com

ترغبي في المجوهرات والثياب الثمينة لتظهري جمالك. كما أن امتناعك عن إظهار الحب لي أثار استغرابي، فقد كنت في قريتك لا أشك في حبك. ولقد أقنعت نفسي أنه بعد تحقيق زواجنا عملياً، كل شيء سيعود كما رجوت وخططت له. ولكن يظهر أنني كنت مبالغاً في تقديري.»

وقفت وتقدمت لتقف أمامه وتمد يديها تلامس وجهه، لتزيل المرارة عن فمه الملتوي، وهي تقول: «آه، كلا يا نيكولو... لقد أردت أن أحبك، ولقد أحببتك. ولكن...» وتلاشى صوتها والتزمت الصمت.

قال بهدوء: «إنك لم تثقي بي. وكيف أستطيع لومك لهذا وقد كنت أعمى عن رؤية آلامك. وهكذا وقعت فريسة تخيلاتك بأنني أهملتك.»

كانت هذه هي اللحظة التي كانت كاتيا تخاف منها أكثر من أي شيء آخر. لقد أرادت بكل ما تملك من مشاعر أن تصدق ما قاله نيكولو عن حبه لها. ولكن، كيف لها ذلك وشبح جينا يقف بينهما؟

لم تستطع منع الرجفة التي اعترت جسدها. وسارت نحو النافذة تتطلع منها إلى الساحة تحدق فيها ساهمة. كيف يمكنها احتمال مثل هذه العلاقة بين زوجها وجينا؟

جاءها صوت نيكولو من خلفها قائلاً بهدوء: «عندما اكتشفت ليلة السبت أنك قد تركتني إلى الأبد كما بدا ما دمت قد تركت لي خاتمك، تملكني القلق البالغ، وتأكدت من أن برونيللي قد سمم أفكارك من ناحيتي. وهكذا، ذهبت لمقابلته.» وتجلى السرور في صوته وهو يتابع قوله: «لقد بدا متعاوناً معي، بعد شيء من الاقناع له من جانبي، وذلك

إلى حد أنه أراني صورتي مع جينا التي سبق وأراك إياها.»

تصلب جسم كاتيا، في موقفها أمام النافذة، ولكنها ما زالت ترفض أن تواجهه. «هكذا إذن؟»

«هكذا عدت إلى القصر مقتنعاً بأنك، ما دمت لم تذهبي إلى برونيللي، فإنك دون ريب قد اتجهت إلى قريتك في انكلترا. واتصلت هاتفياً بجوزيب كابريني لأخبره بأنني سأترك إيطاليا لمدة يوم أو نحو ذلك، وردت عليّ جينا التي أخبرتني أنك وهي قد تبادلتما الحديث معاً في الحديقة وقد بدا أنك تعلمين كل شيء عن حملها وكيف وقفت أنا بجانبها.»

تنحنحت كاتيا، لتجلو صوتها، ثم قالت: «لقد قالت هي ذلك عن نفسها ولم أشأ أنا أن أسبب الإحراج لنا نحن الاثنين بإيضاح جهلي الكلي بذلك.»

«كاتيا...» وأمسكها من خلفها وأدارها إليه بخشونة لتسقط على جسمه الصلب، وهو يقول: «كاتيا، كيف أمكنك أن تعتقدي أن جينا تحمل ولدي؟» وهزها، إنما ليس بخشونة مما جعل شعرها يتناثر على كتفيها، وهو يتابع قائلاً: «يا للحمقاء الصغيرة!»

قالت وهي ترتجف وقد اشتعل في نفسها أمل عارم: «هل تعني أنها ليست كذلك؟»

تمتم نيكولو شيئاً بالإيطالية بلهجة حادة خشنة لم تستطع كاتيا فهمها برغم معرفتها الطيبة بتلك اللغة. وتابع قائلاً: «لم تكن جينا سوى صديقة، ونحن نعرف بعضنا البعض منذ الطفولة. إنني أنا الذي قدمتها إلى

www.elromancia.com

جوزيب كابريني حتى أنني كنت أشبينه في حفلة زفافه.»

«ولكنها قالت...» وتلاشى احتجاج كاتيا على شفتيها، وهي تعود بفكرها إلى تلك الجلسة في الحديقة مع جينا... ماذا قالت جينا بالضبط؟ ولم تستطع أن تتذكر كلمات تلك المرأة... وقال نيكولو وقد عاد إليه عبوسه: «أراهن على انها لم تقل إنني والد الجنين. إنني لم أتعمد رؤيتها عندما ذهبت إلى ميلانو، ولكنني أردت أن أشتري لك ثوباً جميلاً لترتديه في حفلة عرض الأزياء. وكانت هي أفضل شخص يمكنه مساعدتي في مثل هذا.» وشد بقبضتيه على كتفيها وهو يتطلع في عينيها الممتلئتين بالدموع، واستطرد يقول: «لقد دهشت حين قالت إنها تريد رؤيتي. ولكنها كانت صديقة لي، ولهذا تدبّرت الوقت الذي سمح لي بأخذها إلى العشاء. لقد هجرت زوجها منذ ستة أشهر لشدة غيرته عليها، ولاعتقاده بانها تتجنب انجاب الأطفال لكي تتفرّغ لعملها. ومن المضحك أنها اكتشفت انها حامل منه بعد ذلك بأسابيع فقط.»

ابتدأ الأمل يتفاعل في كل خلية من جسمها وهي تقول: «حامل من جوزيب؟ يا إلهي... إنني لم أدرك... يا لجينا المسكينة.»

قال نيكولو عابساً: «تماماً. لقد كانت ما تزال غاضبة من الكلمات القاسية التي تبادلاها أثناء شجارهما. ولهذا صممت على إخفاء حملها عنه، وذلك بأخذ إجازة من عملها عندما يحين وقت ولادتها، وبعد ذلك تستأثر بالطفل لنفسها. ولكنها، مع مرور الوقت ابتدأت الشكوك في صواب ما تفعل،

تراودها. لقد كانت ما تزال تحب جوزيب وتشتاق إليه وأدركت أن قلبها لن يطاوعها أبداً على حرمانه من العلم بولده.» وتوقف نيكولو عن الكلام وهو يرفع يده يسوي من شعر كاتيا برقة، ثم عاد يقول: «ولكنها كانت خائفة مضطربة من أن يرفضها والطفل، لانتظارها كل هذا الوقت الطويل دون إخباره بذلك.»

تنفس بعمق ثم تابع يقول: «لقد أرجعتها إلى بيتها، بعد ذلك العشاء في ميلانو، ثم تبادلنا الحديث في أفضل ما يمكن عمله. واتفقنا أخيراً على أن أكون وسيطاً بينهما. لقد كان جوزيب وزوجته صديقين وزميلين لي، ولهذا كنت أدرك مبلغ شوقه إلى جينا ولو أنه كان يخفي ذلك، ولم يكن ثمة سواي يمكنه إعادتهما إلى سعادتهما الماضية.»

همست كاتيا: «بينما كنت أظن أنك وهي...» وشعرت بالخجل لسوء تفسيرها لكلمات جينا، كما أن السرور أفعم قلبها وهي تنظر إلى نيكولو قائلة: «أوه، يا نيكولو... هل يمكنك أن تسامحني يا ترى؟»

شدها إلى صدره قائلاً: «لقد كان الذنب ذنبي منذ البداية. إذ كان يجب أن أعمل بنصيحة جينا حين طلبت مني أن تشاركك سرها لأنك زوجتي ويجب أن لا أخفي عنك أية أسرار. ولكنني كنت غاضباً من عدم اكتراثك لي، ولهذا لم أجد في نفسي ميلاً إلى تبادل مثل هذه الأحاديث معك.»

تخلل شعرها بأصابعه، ثم أمال رأسها إلى الخلف حاملاً إياها على رفع وجهها إليه والتطلع في عينيه السوداوين وهو يقول: «نعم. سأسامحك يا حبيبتي، على

www.elromancia.com

أن تسامحيني أنت. ولكن، إذا أنت هربت مني مرة أخرى، فسأعاقبك بالضرب الذي يعتقد جدك أنك نلته على يدي.»

ونظر إليها بوحشية ولكنها ابتسمت أمام تهديده، وقد أدركت مبلغ الألم الذي يعانيه كما انها كانت متأكدة من أنه لن يلمسها مهما بلغ غضبه منها.

قال: «يا إلهي، هل عندك فكرة عن مقدار العذاب الذي عانيته عندما جلست انتظر إتصالاً هاتفياً من جدك ليخبرني عن وصولك إلى منزله؟ لم أكن لأستطيع الرقاد وأنا أفكر في ما إذا كنت على صواب في هذا الانتظار أم أنه كان عليّ أن أبلغ الشرطة ونطلب تمشيط القناة. ولكن الذي أبقى على صحة عقلي هو علمي أن الحنان الذي تغمرين به نفسك يمنعك حتماً من أن تسببي الحزن لجدك وعمتك بيكي. وذلك إلى أن اتصل بي جدك هاتفياً.»

تنفست بعمق وقد أحست بما يريد أن يسمعه منها بلسانها لكي تزداد سعادته، وقالت: «وأنت يا نيكولو، إنني لم أرغب قط في أن أسبب لك أي أذى لأنني أحبك. منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها، أحسست بأنك أدخلت إلى حياتي شيئاً لا أعرفه. لقد أدخلت إلى نفسي أحاسيس ومشاعر لم أعرفها قط من قبل. ولكن، لقد حدث كل شيء بسرعة. لقد كان شيئاً مثيراً ومخيفاً في الوقت نفسه. وتملكني الذعر لتورطي بهذه المشاعر نحوك لأنني ظننت أن جدي لن يقبل مطلقاً بزواجي منك، ولكن بدلاً من ذلك...» وابتدأت تضحك وقد زال توترها وهي تتمسك بكتفي نيكولو تمالكاً لتوازنها، وتابعت: «بدلاً من ذلك، كان يقوم طيلة الوقت بدور الخاطب...»

أوقف هو ضحكتها بعناق منه. وامتدت يداها تتخللان شعره وقد حلقا على أجنحة السعادة.

همس في أذنيها بصوت أجش: «لم أشعر نحو امرأة في حياتي كلها، بما شعرت به نحوك. ولم أصب بطعنة في قلبي أقسى من الطعنة التي أصبت بها عندما أخبرتني انك تزوجت مني فقط لكي تحققي بواسطتي أحلامك في الغنى والترف اللذين تستحقينهما. إن أول ما قمت به في ميلانو كان تكبير صورة لك ووضعها في إطار، ثم تعليقها في مكتبي لكي تشجعني أثناء عملي. ولكن ذلك كان بديلاً ضعيفاً للجمال الحي الذي كنت تركته خلفي في البندقية.»

ابتسم وهو يطبع قبلة رقيقة على وجنتها قائلاً: «هل تعديني بعدم الهرب مني مرة أخرى؟»

تنهدت وهي تقول: «أعدك بشرط أن لا تتهمني مرة أخرى بالسطو على مكتبك لسرقة تصميماتك وبيعها للصحافة.»

قال: «آه، كانت تلك أمنية باطنية مني. كنت أريد أن أتبنى أية فكرة، ما عدا أنك فضلت سيزار برونيللي عليّ.»

تألقت ابتسامتها على وجهها وهي تقول: «هذا الذي لن أستطيعه أبداً. ولكن، هل اكتشفت من هو الفاعل؟»

أومأ نيكولو برأسه قائلاً: «لقد أخبرني برونيللي.» وبدا من بريق عينيه انه استعمل طرقاً خاصة ليحمل برونيللي على الاعتراف. واستطرد «إنه أحد رسامي التصميمات الجدد عندنا. وقد شعر بنفسه مغبوناً في معاشه. لقد ترك ذلك الرجل المهذب الشركة الآن ليجد مكاناً في شركة أخرى. ولن يزعجنا بعد الآن.»

سألته: «ألن ترفع دعوى ضده؟»

أجاب: «كلا. فقد كنا متساهلين في الاحتياط من جهتنا، كما أن ما دفعه له برونيللي قد تبرع به الآن للأعمال الخيرية. هذا إلى أن الخسائر الناتجة عن ذلك لم تكن بالغة. فقد كانت التصميمات بدائية ولحسن الحظ أنها لم تكن هي التصميمات العالمية المعقدة، وكما أعتقد فقد انتهت المسألة. ذلك ان عندي أشياء أخرى أكثر أهمية.»

سألته بدلال: «مثل ماذا؟»

أجاب: «هل تعدينني بالحب والإخلاص يا حبيبتي كاتيا؟»

قالت وهي ترتعش: «نعم، آه، بالتأكيد.» وشعرت بالشوق إليه كما لم تشعر نحوه من قبل إذ تأكدت أخيراً من حبه لها.

قال: «اخبريني يا حبيبتي. دعيني أسمع هذه الكلمات من فمك. إنها كلمات الكاهن أثناء عقد الزواج في الكنيسة. قولي: «سأقدم لك جسدي وأخدمك» فكررت هذه الكلمات ولتدخل السرور إلى نفسه أضافت «حتى يفرق الموت بيننا.»

أخذ يدها بيده وهو يدس يده في جيبه ليخرج خاتمي الزواج اللذين سبق وتركتهما له على الوسادة قبل تركها لبيته، وباحتراس، أعاد الخاتمين إلى اصبعها.

قال: «والآن، وقد عدت أكثر سعادة بعودتك زوجة لي. أظن أنه يجب أن نحتفل بإعادة اقترانا.» وابتسم وهو يقول: «ولكن ليس هنا، فهذا المكان يناسب الفلاحين أكثر مما يناسب ماركيزة. أليس كذلك؟»

قالت تغيظه: «هل في ذلك فرق عندما تكون عاشقاً؟ ولكن، لا يوجد قفل في الباب، وأظن أننا استغللنا ضيافة

ريتشارد أكثر من اللازم. هل تظن أنه من الأفضل أن نسلك الطريق الطويل عائدين إلى جدي؟»

فابتسم نيكولو قائلاً: «كلا. ولكن، من حسن الحظ أنه لا يتوجب عليّ ذلك، إذ أنه منذ أخبرني جدك عن الذي سمعته من حديثنا، ذلك اليوم قبل السفر، وعما استنتجته وأكده هو لي بأنك ما زلت تحبينني، جئت إلى هنا بسيارة أجرة. وإذا كان ثمة ضرورة، فسأختطفك بنفسي وأجعلك سجينة في منزل جدك إلى أن تستسلمي إليّ بجسدك، وقلبك، وروحك.»

قالت وهو يقودها عبر ساحة الاصطبل: «ألا يجب أن نودع ريتشارد؟»

قال بجفاء: «أظن أننا يجب أن نجنبه لحظة الاحراج هذه، ويكفينا اضطرارنا لرؤية جدك وعمتك بينما رغباتنا مكتوبة بوضوح على وجهينا.»

لكن البيت كان هادئاً حين دخولهما. وصعد بهدوء السلم نحو غرفة نوم كاتيا التي عاشت فيها منذ اللحظة التي أحضرها فيها انطونيو لورنزو إليها كملجأ يحميها. وثقة منه بأن ابن باولو كاشياتور سيتابع طريقه هو، في العناية بحفيدته، أقنع العمة بيكي بأن يتناولا القهوة والكعك في الحديقة خلف البيت، دون أن يكون في نيتهما العودة إلى داخل البيت قبل أن يستدعيهما هو بنفسه.

مستلقية بين ذراعيه الدافئتين، أخذت كاتيا تتخلل شعر نيكولو بأصابعها الناعمة وهي تقول: «لم يبق أمامنا سوى اسبوع أو أكثر قبل أن أقف معك أمام المذبح في كنيسة علبة المجوهرات سانتا ماريا. وما أجمل أن يكون جوزيب وجينا كابريني معنا، هناك.»

www.elromancia.com

قال نيكولو: «وكذلك سيزار برونيللي.»

جلست وهي تهتف: «ماذا؟»

ابتسم قائلاً: «كنت أفكر في الدعوات إلى حفلة الزفاف. وأننا يجب أن لا ننسى سيزار برونيللي. إنه يمكن أن يخصص لنا صفحة كاملة يضع فيها صور الزفاف وحفلة الاستقبال. على الأقل، هذا ما يتوجب عليه نحونا.»

ضحكت كاتيا وهي تقول لاغاظته: «إنك أكثر الشبان الذين عشقوني، مكراً.»

أجابها بمثل قولها: «وأنت أكثر الفتيات اللائي عشقتهن جمالاً.» قال ذلك برقة وحنان وهو يرفع خصلة من شعرها الذهبي إلى شفتيه يقبلها وهو يقول: «يا معشوقتي الذهبية، ويا زوجتي الذهبية التي كافحت لأجلها ببالغ الجهد، ووصلت إليها ببالغ الجهد، وهي لي إلى الأبد.»

تمت